

فنون الأذب العربي

الفن الغنائي

٤

المديح

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

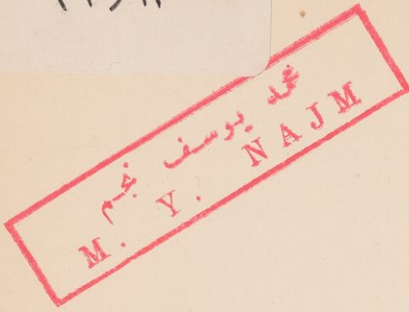
دار المعارف

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



المديح

٢٢ / ١٢



CA
808.1
D126A

المِيع

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

المدح فنّ الثناء والإكبار والاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك ، وسياسة الوزراء ، وشجاعة القواد ، وثقافة العلماء ، فأوضح بذلك بعض الخفايا وكشف عن بعض الزوايا ، وأضاف إلى التاريخ - صادقاً أو كاذباً - ما لم يذكره التاريخ ؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه . وزاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية ، ورفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام ، وأغفل زملاء لهم كانوا أحقّ بالذكر وأجدر بالشهرة ، ولكنها الحظوظ يوزّعها الشعراء ، فينال الثناء بعضاً ويحرم بعضاً ، كما قال يزيد الحارثي :

وإذا الفتي لاقى الحمام رأيته لولا الثناء كأنه لم يولد
ولذلك كان المديح في حضارتنا كالبرقيات التاريخية تشير في اقتضاب إلى الأحداث ولا تسهب في تحليلها ، شأن الشعر دائماً ، وقد تكون فيها دعاوة وحزبية وشطط وإسراف ، ويكون فيها حقّ وصدق وإنصاف ، لذلك يجب أن نقف منها موقف النقد والشك والتحريض ، كما نقف من كتب التاريخ سواء بسواء .

وسبب ذلك أن الشعر كثيراً ما تغلب عليه العاطفة والخيال ، وتدفع إليه الإقطاعات والهدايا والأموال ، أو تسوقه السياسة والعصبية والمذهب والدين ، والخوف والبطش والرغبة والرغبة ، يُقال في ظروف خاصة وفي ساعات معينة ،

يروج بعدها في الأسماع والقلوب ، ويتمكن من مشاعر الناس ، ويسير فيها في يسر ولذة لا تتاحان للتاريخ والمنطق والفلسفة .

وقد كان همّ المادحين في أكثر مدائحهم للرؤساء والحكام أن يمجّسوا الصفات الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية ، أو أن يخترعوها ويلصقوها بالممدوحين ليربحوا في حلبة المديح ، وليرفعوا لواء الممدوح بين الناس ، فاعلمهم في ذلك كالصحافة الحزبية لعصرنا ، ترى الخير كل الخير عند زعمائها ورؤسائها وقادتها ؛ أو لعلمهم كالرسامين المصورين يستطيعون أن يظهرُوا أجمل ما في الوجوه وأحسن ما في المشاهد ، فيصورون من جانب واحد ، هو جانب الجمال والحسن ، ويخفون المعالم الأخرى بريشة بارعة تصصح وتلون وتبدع ، وتسלט الأنوار والظلال ، وتتلاعب بها ؛ فالمدح في هذا على عكس الهجاء .

وقد استعرضنا ما كان للعرب في هذا الباب فرأيناه كثيراً ضخماً منذ الجاهلية حتى اليوم ، يشكل ديواناً كبيراً وجزءاً خطيراً من أدبنا ، يحتلّ موقعاً هاماً ، لأنه يُعنى ، فيما يعنى به ، بوصف الرجال وامتداح مزاياهم ، والتعجب إليهم والتقرب إلى مقامهم بأحسن أسلوب وأبرع صورة .

والمدح كثير الأنواع لا يكاد يحصره تقسيم أو تبويب ، ولا يوفيه كتاب صغير ؛ ولكننا ننشئ للشادين ، فنكتفي بغيض من فيض ؛ ونعرض منه نماذج في مديح الخلفاء والملوك ، ومن أعانهم من أمراء ووزراء ، وقواد ووجهاء ، ومن لمع في الأقطار من علماء وأدباء ، وما كان من المديح الديني ، والإشادة بفضائل النبي الكريم ، والثناء على أهل بيته والدعوة لهم في الخلافة والحكم ، وما وقع في مديح الأوطان والبلدان والمديح السياسي عامة ، لعلنا نتعرف إلى المثل العليا التي كان يعجب بها شعراؤنا على اختلاف العصور والأوطان .

ونحن لا ندعى الإحاطة والشمول ، فإنها محاولة أولية في باب جديد من
 أبواب التصنيف والتأليف ، جعلناه في صفحات يسيرة وأسلوب مبسّط ،
 ليكون قريباً من الأذهان ، لطيف المتناول ، نافعاً على إيجازه . والله من وراء القصد .
 سامي الدهان

تحييد

١

المديح في الآداب العالمية :

منذ فجر التاريخ أحس الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان ، وشعر باختلاف المواهب والقيم عند الناس ، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع ، لذلك سعى إلى رضا مَنْ هم فوقه ، وتجميل حياتهم بالقول ، فوقف منهم موقف الاحترام والتودد ، فكانت أقواله تعبر عن المديح . وسواء أكان هذا المديح صادراً عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه ، فهو يقرّ بالرياسة والزعامة لمن يتصور أنهم سبقوه بالغنى والشجاعة والقوة والفهم والذكاء . فهو يشترك مع الناس جميعاً في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والعالم والغنى والسيد والأمير نظرة خاصة ، ويشترك معهم كذلك في مديح هؤلاء حين يعرض له القول أو يتصدى للحديث والبيان شعراً ونثراً .

ولسنا ندري كيف كانت أوائل المديح عند الإنسان الأول ، فقد غابت جذورها مع ظلمات التاريخ . وبقي شيء يسير على الأحجار القديمة تحمل في صفحاتها حمداً وثناء لبعض الأمم ، تشيد بالقواد أو الملوك وتتحدث عن انتصاراتهم ومواهبهم ، وتمنحهم صفات وألقاباً ونعوتاً تسمى في عرف الأدب بالمديح . وأوراق البردى والمسلات والأهرام والقبور تنقل إلينا صيغاً كثيرة لهذا المديح اكتشفت على شطآن النيل وفي صحارى مصر وقصور بابل وتمائيل اليونان والرومان ومعابد الهند والصين . لا تختلف في عباراتها عن إعلاء شأن الممدوح من بيان شجاعته وسطوته وسيطرته وقوته وذكائه وعظيم فهمه وعلمه .

وسواء أكانت هذه المدائح على ألياف الخيزران أو نسيج الحرير أو أوراق النبات أو الأحجار . فهي تعبر عن نظرة الاحترام ، فقد نشأ الإنسان في الطبيعة على خوف من القوة واليأس والبطش والهول ، لذلك مجد البحر والنهر والرعد والثور والفيل والأسد والمطر والشمس والقمر والنار والهواء والجبل وغيرها ، فقال عبارات المديح وتوجه بها إلى هذه القوى خاضعاً خاشعاً معجباً . فلما أحس بوجود الآله خضع لجلاله وانحنى أمام سيطرته وبأسه ، فجعل لكل شيء إلهاً أول الأمر ، ثم توجه إلى الآلهة بصلواته وعبادته ، وهذه الصلوات والدعوات إن هي إلا مديح وتضرع ، سواء أكانت في التشفع أو التماس الخلاص من مرض أو خطر ، أم كانت مجرد عبادة خالصة وإحساس عميق .

وفي جدران المعابد بمصر اكتشف العلماء « كتاب الموتى » ، وقرءوا فيه من الدعوات والعبادات ما يفيدنا في فهم أدبهم ومديحهم ، ومنها : « السلام عليك أيها الآله الأعظم ، جئتك يا إلهي متحلياً بالحق متخلياً عن الباطل ، فلم أظلم أحداً ، ولم أسلك سبيل الضالين ، لم أحنث في يمين ، ولم تضلني الشهوة فتمتد عيني لزوجة أحد من رحمي ، ولم تمتد يدي لمال غيري ، لم أقل كذباً ، ولم أكن لله عاصياً ، ولم أسع في الإيقاع بعبد عنده سيده » .

وفي هذا الدعاء اعتراف بأله الحق ، وخشوع له وخضوع لجلاله ، وفيه نظرة القدماء إلى الرجل الصالح في الدنيا ممن يستحق الثواب ، فهو من لا يظلم ولا يحنث ولا يخدع ولا يسرق ولا يكذب ولا يخلف الوعد ، وهي صفات ظلت على الزمان موضع المدح منذ عهد المصريين إلى اليوم ، لم تتغير ولم تتبدل ، فالفضائل هي الفضائل والمزايا هي المزايا .

وفي الأدب المصري هذا ، اكتشف العلماء كذلك على ورق البردي شكاوى الفلاح وقد توجه إلى سيده بقوله : « يا سيدي يا عظيم العظماء ! يا أغني الأغنياء ! ومن ليس فوقه إلا عظيم أعظم ، وغني أغني ... إن لسانك لسان

الميزان وقلبك وشفتيك ذراعاه ، فإذا لم تعدل فمن يكبح الشر ؟ ... يأيها المدبر العظيم ، لا تحرم من فقيراً مثلى من ملكه فمال الفقير نفسه ، ومن اغتصبه كتم نفسه » . وفي هذا القول من الخضوع والخنوع ما يشبه أقوال كثيرين عاشوا بعد هذا الفلاح عدة قرون يستجدون الملوك والأمراء والزعماء بمدح يشبه هذه الصيغ كأن الزمان لم يتغير ، أو كأن المعاني لم تتبدل .

وفي الآداب الصينية والهندية مثل ما كان عند الأمة المصرية القديمة من نظر إلى الزعيم الكبير والإنسان الكامل والمثل الرفيع ، تجدها في كتبهم الدينية وملاحهم التاريخية ، مثل كتاب كونفوشيوس أو « ماها بهارتا » أو « راميانا » ويسيطر على كثير من صفحاتها روح الإكبار والاحترام وتعابير المدح والتقدير . وكان في الأدب الفارسي القديم ما لآداب الصين والهند من روعة الحب والاحترام ، فقد آمن « زرادشت » في كتابه « الأفستا » بإله واحد عظيم ، وسطر لقومه صفات الرجل الكامل ، وبين الصلاح والفساد والخير والشر ، ونهى عن الاعتزاز بالحسب والنسب ، وإنما ساق الشعب إلى العمل والجد .

وفي التوراة والتلمود خشوع وخضوع لملك الملوك ، ودعوة كذلك إلى تقديس البطولة وإكبار الزعامة ، وقصص كثير عن الأقوياء . وفيهما صلوات لإله البشر . وفي مزامير داود صلاة تتوجه إلى الله هذا بعضها : « أنت مالك كل أمرى ، لأنك واضعى بيدك فى بطن أمى ، أحمدك وأشكرك فقد أتيت بالأعاجيب فى خلقى ، كونت عظامى فى الخفاء ، وصنعتنى على عينك وقدرت أمورى فى كتابك ... أنا لا أحصى نعمك فهى أكثر عدداً من الرمل » . وهذا مدح دينى اقتبس منه المادحون والشعراء صوراً وتعابير تراها فى ثنايا الكتاب .

وفي الآداب اليونانية أساطير تشبه ما جاء عن أمم الأرض فى أساطيرها فهى تعد الآلهة قوى عظيمة سحرية تعدو حدود العقل والخيال معاً ، ونقص سير الحروب وانتصارات الأبطال ، وتمجد الشجاعة والبطولة والخلق الراجح

وتشيد بالخير والعدل والحق ، وقد خلف القوم ملاحم كبيرة كما خلف الهنود والفرس ، فاشتهرت الألياذة والأوديسة بوصفهما للمعارك والحجازر ، وإبداعهما في رسم الجيوش المحاربة ، حتى لقد قصرت عنها الأمم في ذلك ، فوصفت الإلياذة أتباع « أخيل » في الحرب فشبهتهم بذئاب في قلوبها بأس شديد عادت بعد أن نهشت وعلا وفي أنيابها بقية من دماء ، ثم ازدحمت على الماء لترتوى ، فلما امتلأت بطونها وقفت تنتفخ الرعب ، قال هوميروس : « لو رأيت هذه الذئاب فقد رأيت رجال أخيل العظيم قوة ومظهراً حين دعاهم الداعي لهذا القتال الخفيف » . وهذا مديح لأخيل ورجاله في الإلياذة تقع على مثله في الأوديسية وفي الشعر الشعبي للإغريق ونثرهم وأناشيدهم ومسرحياتهم ، فيه المثل العليا كالشرف وسمو الخلق والبطولة والكرم ، وتلمح له شبيهاً كذلك عتد الرومان وملاحمهم اللاتينية ، فقد وصفوا المعارك والحروب والأبطال والشجعان ، وامتدحوا مواقفهم المثيرة ، ومزجوا ذلك بإشراك عناصر الطبيعة ، ورسوموا ما كان يثير الخوف منها ، وبسطوا موقف الفرسان من حرب الإنسان والطبيعة .

ولما كان القرن الخامس عشر للميلاد في الغرب ، قام الإنكليز برسم الرجال وامتداح الأبطال ، ونهض الفرنسيون في الجنوب ينشدون المديح على لسان شعراء التروبادور ، وهم من طبقة الفرسان والسادة الأشراف ، وقد قلدوا في كثير من المديح شعراء الأندلس من العرب ، فصوروا البطولة والشجاعة والكرم . ونشأ كذلك في شمال فرنسا شعراء المغامرة يرسمون البسالة ويصفون الشجاعة في ملاحم قوية فيها أعجاد الرجال وكرم الأخلاق . ولم تتخلف ألمانيا عن فرنسا وإنكلترا وأسبانيا في هذا الميدان ، وإنما نظمت في مديح الأبطال وسير الزعماء والقواد والملوك ما يشبه الإلياذة والأوديسة .

وظل أدباء الغرب ينسجون على منوال أجدادهم في الأساطير ورسم الأبطال حتى كثرت المسرحيات والدواوين في مديح الزعماء والملوك والقواد

والكتاب ، مما يطول بيانه وحصره والتعرض له في هذه الصفحات القليلة ، فقد أحيوا مسرحيات القدماء من اليونان والرومان ، وأعادوا قصص الفرس والهند ، فوصفوا البطولة والشجاعة ، واستفادوا من أشخاص التوراة ومعارك الأمم القديمة وقوادها ، فكانوا في المديح كما كان أولئك ، ولكنهم برزوا في المديح القوي مما نسميه « الحماسة » ، ولها كتاب غير هذا يعرض لهم ويفصل الأمر فيهم .

المديح في الأدب العربي :

بسطنا ما كان للأمم القديمة في الشرق والغرب من أدب في المديح ، ورسمنا في عرض سريع تقديس الآلهة وتكريم العظماء وإكبار الزعماء والملوك والقواد والعلماء ، وذكرنا ما كان منها خالصاً للدين وما كان منها للدنيا ، ورأينا أن الأمم جميعاً تشترك في خطب الود عند الأقوياء وإظهار أيادهم وصفاتهم ، وما لهم من خلق رفيع وشجاعة نادرة وتفوق كبير . وسننظر الآن إلى العرب كيف كانوا يرون الصفات المثلى والفضائل البارزة في ممدوحهم ، ومن أين يأتيهم الإعجاب ويبلغهم التقدير ليرسموا مديحهم وإعجابهم وتقديرهم في قصائدهم .

لقد قامت في قبائل العرب حروب واستعرت بينهم وبين جيرانهم معارك ، فثارت حرب البسوس قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن ، وأتانا شعر كثير نسب إليها ، وقيل فيها ؛ وجاءتنا كذلك أشعار أيامهم وما كان من مديح لأبطالهم وزعمائهم ، فقد كانت حياتهم تسود رئيساً وتملك زعماً وترفع قائداً . وكانت الأديان المختلفة عندهم تبعث على العقيدة بوجود إله يذكرونه في شعرهم ويتوجهون إليه ضارعين خاشعين ، فكانت الأسباب إذن متوفرة لخلق المديح ، وكانت الموضوعات متيسرة في المديح الديني والسياسي والاجتماعي كما توفرت عند غيرهم من الأمم ، ولكنها زادت عندهم بسبب الفقر المدقع في هذه الصحراء

القاحلة ونضوب موارد الرزق وفقد الصناعات ، وندرة البساتين والغياض ، وشح المياه ؛ فكثرت المحتاجون وقل الأغنياء وعم الدهماء نظرة خاصة إلى الإحسان والرفق والعون وحماية الجار لا نراها عند غيرهم من الأمم بمثل القوة التي استولت على نفوسهم ، لذلك كثر القتال في سبيل الحياة ، وتنوعت أساليب البطولة والبسالة من خروج في القفر ، وصراع لوحش البر ، وقتال للأعداء والمغيرين واللصوص . وسارت في القبائل سيرة الكرماء والأجواد والسادة الزعماء والوجهاء والمصلحين . فلما رحلوا قبل البعثة المحمدية إلى الشام وأطراف العراق رأوا عند إخوانهم ملوك العرب ما يشجع على الكسب والترف والنعيم ، فعاش شعراؤهم على مقربة من هؤلاء الأمراء يتناولون من هداياهم ويتناولون بشعرهم عطايا وجوائز ، فكان مديح الملوك ، وكان المديح السياسي على شكل قبلي ينتصرون للغساسنة حيناً وللمناذرة حيناً ، ويضيفون بذلك إلى ديوان المديح قصائد خالدة من غرر الشعر .

وظهر الرسول الأعظم فانقسم العرب في اتباعه ، ووقف فريق معه وفريق راح يناضله ؛ فنشأ شعر ديني إسلامي في المديح يشيد بالرسالة والدعوة والرسول ، ويكبر الخلق الرفيع والبطولة الحارقة ويبشر بالدين الجديد فيمدح مزاياه ، ويمهد الطريق للشعراء الإسلاميين بعده على مدى القرون في امتداح الإسلام والنبي الكريم .

ولما كان الفتح وانتقل المسلمون إلى الشام نقلوا عصبيتهم ونزعاتهم القبلية فانصرفوا إلى حروب مذهبية ودينية وسياسية ، وأكثروا فيها من ذكر الأبطال والقواد والملوك والأمراء ، وغذاهم خلفاء الأمويين بالذهب فانبسطت رقعة المديح السياسي والاجتماعي والديني . ولما انتقلوا إلى العراق كثر هذا المديح وتنوع . فدخل الترف ولدت طبقة ناعمة غنية وطبقات متوسطة تعيش بقربها وتستفيد من جوارها ونعمها ، وطبقة بائسة لا تصل إليها ولا تبلغ إلى مجالسها ،

فتمدح من فوقها وتثنى على من ينعم عليها ؛ أو تتحرق بمدح لعله يبلغ إلى المسامع والآذان ، وكان الشعراء فى الطبقة المتوسطة تتقرب وتمدح وتتصل بالسياسة حيناً وبالمذاهب الدينية والاجتماعية أحياناً ، وتثنى إلى ذلك على القواد والعلماء والوجهاء .

وتفرقت بعد ذلك دول الإسلام شيعاً ، وتقسم الملوك مناطق العالم الإسلامى ، فازدادت موارد الرزق أمام الشعراء وتفتحت أبواب المديح لكثير منهم ، فزادت الوظائف — كما نقول اليوم — وأصبح لكل شاعر أن يطمح فى أن يسافر إلى أمير يكفيه ، أو ملك يلبيه ، أو قائد يحميه . وامتألت دواوين المديح بقصائد طويلة ، اخترع الشعراء فيها حيناً ووقف خيالهم أحياناً ، فقد ألم إخوانهم قبلهم بكثير من المعانى ؛ وضائق سبل الاختراع فأعادوا الصور والتراكيب ، وتضاءلت ينابيع المديح وخفّ معينه ، فلن يرتوى الشعراء من بحر خضم كما كانوا ، ولذلك ألحوا على القديم وبدلوا فى مبانيه وصوره ، وأعادوا وكرروا حتى سقط المديح البليغ ، كما سقط العالم السياسى للإسلام فى ظلمات داجية . فلما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ فى مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتجهون حيناً إلى قصور الآستانة وحيناً إلى قصور القاهرة ، أو يترددون حول الوجهاء والزعماء والعلماء ، أو يطرقون أبواباً جديدة فى امتداح البلدان والأوطان ، وما زالوا كذلك إلى اليوم ؛ وسيظلون كذلك فى الأقطار العربية ، ما دام الشعر وحده لا يروج إلا عند ذى سلطان أو ينفق عند ذى وجاهة ومكانة ، فهو اليوم كما كان من قبل وساطة للمال والرفعة والشهرة ، يقوم عند صاحبه مقام الأسرة والقوة والشهادة العلمية ، لذلك جعله كثير من الشعراء سبيلاً لمكانة سياسية أو نيل كرسى فى الحكم . فالآذان ما تزال سليمة تقود المديح وتكبر الشعر المتين ، وتعرف أن خيبة الشاعر فى مديحه تدفعه إلى لون آخر من الشعر هو الهجاء ، وهناك الطامة الكبرى والتشهير

أو الفضيحة ، والعاقل من ابتعد عن لسان الشر أو اشترى الحمد والثناء والمديح .
وسنبسط ألوان المديح في الأدب العربي كما تقلب على العصور الأدبية
كلها ، ناظرين إلى نوعه في تصنيف جديد ، تعده محاولة في تقسيم أبواب
المديح ، آملين أن لا نجانب الصواب في فهمه وعرضه وتحليله ، لعلنا نبلغ
الفائدة المرجوة من كتب هذه السلسلة التي تهدف إلى البساطة واليسر في
الإحاطة بفنون الأدب العربي ، من غير أن تفوتها الدقة والعمق في البحث والدراسة .
ونحن نبدأ بمديح الملوك والخلفاء لأنه أكثر الشعر كمية وعدداً في ديوان العرب ،
ثم نتبعه بمديح الأمراء والوزراء والعلماء والأدباء ، وننتقل بعده إلى المديح الديني
فالسياسي ، حتى نصل إلى نهاية المطاف . وهما أن نثير المشاكل ونكثر من
الافتراض وطرح الأسئلة ، لعل شبابنا يتساءلون في كل ما يقرءون عن الأسباب
والدوافع والنتائج ، فتكون قراءاتهم نافعة عميقة مفيدة لذيدة .

الفصل الأول مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد والرأى السديد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة والحديثة ممن قرأنا أمرهم في التمهيد ؛ لذلك أثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين والقواد العظماء والرؤساء المسودين ، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم ، ولكنه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ فجر الجاهلية نظرة إكباروا احترام لما بين عيشه وعيشهم من بون شاسع وفرق واسع ، ولما بين بيته الصغير وقصور أولئك من مدى يهر الطرف ويسحر اللب ؛ وقد رأى بأَم عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرك لسانه بالإعجاب . ولعل العربي تأثر أول الأمر بنظرة الفرس والروم إلى ملوكهم ، فقد كانت الأمتان تضعان الحواجز والسدود والحراس والجنود دون البلوغ إلى قصور الملوك والأمراء ، وكان اللخميون في العراق والغساسنة في الشام يتأثرون ما وسعهم هاتين الأمتين بالمظاهر والمفاخر ، ويقلدون مراسيمهم وأعيادهم تقليداً يثير إعجاب القادم من الصحراء ، ويسيل لعبه ويضطره إلى الحديث والفخر والمدح . ونسارع إلى القول أن الإسلام سعى إلى محو هذه النظرة ، فقام الخلفاء الراشدون بالملك الزاهد والحكم الديمقراطي وقلدهم بعض الخلفاء ، لكن أكثرهم عاد إلى النظرة القديمة المتأصلة فنافس الفرس والروم ، وبذهم في بعض الأحيان بالمظاهر والمراسم ، كما أحيا النظرة القبلية في السياسة والوراثة والحكم ؛ وقال الشعراء المداحون في الإشادة بهذا

كله فرسموا ما كان عليه هؤلاء الخلفاء والملوك منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر .
ففي الجاهلية قام النابغة الذبياني بزيارة الملوك في الشام والعراق ، فرأى
صور الأبهة والترف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك ، وعاد بصور
تعبر عن حبه لهذه الربوع واحترامه لسلادتها ، فإنهم ملوك ولكنهم مع ذلك
إخوان كرماء يحكمون العربى الشقيق الضيف فى أموالهم ، ويقربونه فى ضيافتهم
فيشعر أنه ربّ المنزل وأنه انتقل من أهل إلى أهل على ما بين الحجاز والشام
من فرق واختلاف .

ولقد دهش النابغة لما رأى فتخيل أن البناء هناك من صنع الجنّ ، فعيناه
لم تشهدا قبل « تدمر » أعمدة صاعدة إلى السماء وعمارة شامخة إلى العلاء كما
شهدتا خلال الزيارة ، لذلك رأى للنعمان فضلا على الناس كلهم ، وجعل
له الطاعة والحب ، واعترف بأنه يهب المائة الأبقار ، فلما أراد أن يصف
جوده امتدحه بأنه أشد من سيل الفرات حين تدمه الأودية فيزجر ويخيف :

فما الفراتُ إذا هَبَّ الرياحُ له تَرْمِي غَوَارِبُهُ العَبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ^(١)
يَمْدُهُ كُلُّ وادٍ مُتَرَعٍ لَجِبٍ فِيهِ رَكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضَدِ^(٢)
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِمًا بِالْخِيزَانَةِ بَعْدَ الْأَيْنِ وَالنَّجْدِ^(٣)
يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدٍ^(٤)

فأنت ترى هذه الصورة الجليلة التي صنعها النابغة ليرسم كرم النعمان إذ
رسم الفرات في أكمل ما يكون امتلاء ، فإذا عصفت به الرياح هاجت أمواجه

(١) الغوارب : الأعلى من الماء والأمواج .

(٢) الركام : الحطام المتكاثف - الينبوت : شجر الحشخاش ، وما تخضد : أى تكسر
من الأشجار - يمد مائه : أى يعلو .

(٣) الخيزرانة : ذنب السفينة - الأين : الفتور والإعياء - النجد : العرق والكرب .

(٤) النافلة : الزيادة فى العطاء - يحول : يمنع .

وزادتها هيجاناً بما يترامى إليها من ركام الشجر حتى ليخاف الملاح الماهر ،
فلا يستطيع تسيير سفينته إلا بجذر بالغ ، فيعتصم بذنب السفينة ويلقى في
سبيل ذلك عناء وعتناً قويين . وكل هذا ليقول إن جود النعمان كالنهر بل هو
أشد من نهر الفرات وأقرب إلى البحر في هديره وأمواجه وعنفه وقوته . وهذه
الصورة الشعرية تقلب عليها الشعراء في المديح ورسم الكرم والجود والعطاء ،
فبعضهم قلدها ، وبعض أضاف إليها ، فلم يخرج كثير منهم عن تشبيه الكرم
بالبحر والجود بالموج المزبد .

وقد طلع علينا النابغة بصور كثيرة للمديح ، فاتخذ سبيله إلى تشبيه
مليكه بالليل الذى يدركه أنى كان ، وشبهه بالربيع المنعش كذلك :

وَأَنْتَ رَبِيعٌ يَنْعَشُ النَّاسَ سَيْبُهُ وَسَيْفٌ أَعِيرَتْهُ الْمَنِيَّةُ قَاطِعُ
أَبَى اللَّهِ إِلَّا عَدْلُهُ وَوَفَاءُهُ فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا الْعَرَفُ ضَائِعٌ^(١)

فالنعمان ربيع يقبل بالجمال والزهر والنور والبركة والثر ، فهو خير كله
وهو مع ذلك مخيف لأعدائه كسيف قاطع أعارته المنية حدّها الباتر . والشاعر
يقول بأن العرف لا يضيع بين الله والناس .

واستعار النابغة صورة أخرى لمديح مليكه ، فشبهه بالشمس بين الكواكب
لمكانه بين الملوك وارتفاع قدره على أقدارهم فقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ^(٢)
بَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْذُ مِنْهُمْ كَوَكَبٌ

وهكذا سن النابغة للشعراء سنن المديح الرسمى حين يتطلعون إلى الملوك ،

(١) النكر : المنكر - العرف : المعروف .

(٢) سورة : منزلة وفضيلة ، ويروى : صورة - يتذبذب : يضطرب .

فقال في مليكه إنه بحر طامى الجود ، وإنه ليل يبسط رداءه على الوجود ، وإنه شمس بين الكواكب ، وإنه ربيع ينعش النفوس كما ينعش المطر الأرض الظمأى وإنه سيف بتار مهيب . ولذلك قال النقاد إنه أول الاحتراف في المديح . ورأى فيه بعضهم صحافياً لعصره يُعير قلمه لكل من يجود عليه أو يحمى حماه ، أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمديحه ويصوره في احترام وحب وخوف وفخامة ؛ ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك . وبذلك يختلف عن زملائه الجاهليين كامرئ القيس والمهلhel وغيرهما حين قالوا المديح عن حب عميق وشعور صادق واعتراف بالواقع ، فلم يتملقوا ولم يتزلفوا لأنهم لم يتكسبوا بشعرهم ولم يحترفوا بمديحهم . وقد لاحظ المستشرقون أنه خلق في الأدب العربي ما يسمى بأدب الملوك أو الشعر الاستقراطى ، لأنه يحيط الملوك وحدهم بالدعاية والرعاية ، وينسى الشعب وعامة الناس من الذكر والعناية ، فلا يعيرهم مكاناً من المديح ولا يلفت النظر إلى أعمالهم ، فكأن الدنيا تعيش لهم وبهم ؛ أو كأنهم يملكون كل شيء في الأمة لا يذكر إلى جانبهم أحد ، وهم السادة وغيرهم العبيد ؛ ويبدو أن هذه النظرة قد تبدلت قليلاً خلال عصورنا الأدبية ، فاتخذ الشعراء من رعاية الخلفاء والملوك لشعوبهم وقبائلهم موضعاً للمديح والإطراء ، أو خيل إليهم أن ذلك قد وقع فاستحقوا المديح .

والأعشى سار على سنن النابغة في المديح ، ولكنه انحط إلى درك المسألة والتكسب المشين ، فمدح كل من أعطى وشكر كل من أكرم ، فقال يمدح الأسود بن المنذر اللخمى ، وهو من أخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فرأى فيه الحزم والحذر وصلة الرحم والشجاعة والقوة فقال فيه :

عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتَّقَى وَأَسَا الصَّرَّ ع ، وَحَمْلٌ لِمَضْلَعِ الْأَثْقَالِ (١)

(١) التقى : الحذر - أسا الجرح : داواه - الصرع : داء يبطل الحس ويمنع الحركة ، وهو التيه والكبر .

وصلاتُ الأرحام قد علم النسا
وهوانُ النَّفسِ العزيزة للذك
ر إذا ما التقتْ صدور العوالى
وعطاء إذا سألت إذا العذ
رة كانت عطية البخال^(١)
ووفاء إذا أجرت فما غرَّ
ت حبالٌ وصلتها بجبال^(٢)
أريحي صلتٌ يظلُّ له القوْ
مُ ركوداً قيامهم للهلال^(٣)

فالممدوح يجمع بين الصفات المثلث التي يحبها العربي ، يصل الرحم ويفك
الأسير العاني ، ويهين نفسه في سبيل المجد وطيب الذكر إذا تصاولت الرماح
وعلا الغبار ، ويحير إذا انقطع الحبل بالفقير المستغيث ؛ وهو قوى يسكن له
الناس كأنهم ينظرون إلى الهلال . فالأعشى ذكر الشجاعة والكرم في مدحه
للأسود وأطال في مدحه وفصل حتى أدان له الرقاب ، وجعله يغزو كل عام ،
ويصل الخيل بالخيول ، ويتدفق على حومة الوغى ، ويسقى الكتائب من كأس
هجومه ويحير المستجير ؛ فهو في هجماته يذهل الشيخ عن بنيهِ ، ويشرد
الإبل فتوغل في الرمال ويملك النواصي في القتال ، ويواصل الحروب شتاء
وربيعاً ، فيبعث الذل في الأعداء ، ويعيد المجد إلى الأصدقاء ، ويحمل لواء
الظفر والنصر .

ومدح حسان بن ثابت ملوك الغساسنة وأمراءهم ، ووصف نعيمهم وترفهم ،
ورسم ما كانوا يلبسون ويرتدون ، وذكر ديارهم العامرة بالكرم والجمال ، فقال
فيهم :

(١) العذرة : المعذرة .

(٢) جبل غرر : غير مؤثوق به .

(٣) الأريحية : الارتياح لفعل الندى والجواد - صلت : ماض - ركود : لا يتحركون .

- يَمْشُونَ فِي الْحَلَلِ الْمَضَاعِفِ نَسْجُهَا مَشَى الْجَمَالُ إِلَى الْجَمَالِ الْبُزْلِ (١)
 أَوْلَادُ « جَفْنَةٍ » عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرُ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ (٢)
 يُغَشُونَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ (٣)
 يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ « بَرَدَى » يَصْقُقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ (٤)

فهم يمشون في ثياب مضاعفة النسيج ، وهم آمنون لا يبرحون ولا يخافون كما تخاف العرب ، لا يتجمعون ولا يتخففون إلى مكان آخر ، ومنازلهم مفتوحة للأضياف والطراق والعفاة حتى لتأنس كلابهم بالقصايد فلا تهرّ على أحد ، لا يسألون مَنْ يقبل عليهم أو يؤم ديارهم ، فهم في خفض من العيش يضيفون كل من يمرّ بساحتهم . ومثله الخطيئة ، فقد مدح عمر بن الخطاب طمعاً في عدالته ورجاء لقضاء حاجة يطلبها ، فرأى فيه أمين الخليفة بعد الرسول وأوفى قريش جميعاً وأطولهم في الندى بسطة ، وأفضلهم فعلاً .

وأما الأخطل ، فقد كان شاعر الخلفاء ، وشاعر بني أمية كلها ، مدحهم واستدّرّ جودهم وعطفهم وحبهم ، وكان يبدأ مديحه بالأسلوب القديم على عادة أقرانه ، ثم ينتقل منه إلى الممدوح فيقول في الخليفة عبد الملك بن مروان :
 الْخَائِضُ الْغَمْرُ وَالْمِيمُونُ طَائِرُهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ (٥)

(١) الحلل: ج حلة وهو الرداء - البزل: ج بازل وهو البعير إذا استكمل الثامنة وطعن في التاسعة .

(٢) جفنة : أبو ملوك غسان في الشام .

(٣) يغشون : لا تخلو منازلهم من الأضياف .

(٤) البريص : نهر بدمشق ، وبردى نهر آخر فيها - يصفق : يمزج - الرحيق :

الخمير البيضاء - السِّل : اللبنة .

(٥) الغمر : الماء الكثير .

وَمَا الْفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ حَوَالِيَهُ فِي حَافَتَيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ الْعَشْرُ
وَدَغْدَغَتْهُ رِيَّاحُ الصَّيْفِ واضطربتْ فوق الْجَاجِيَّ مِنْ آذِيهِ غُدْرُ^(١)
مُسْحَنَفَرٌ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ يَسْتُرُهُ مِنْهَا أَكَافِيْفٌ فِيهَا دُونُهُ زَوْرُ^(٢)
يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يَجْتَهِرُ^(٣)

فالحليفة شجاع يخوض الحرب ، ميمون النقيبة ؛ وهو في كرمه أشد سعة من الفرات إذا جاشت أمواجه واصطفقت أواذيه ، وسقط منحدرًا من جبال الروم في سرعة وهول . وهذه الصورة تذكرنا بما قال النابغة في الفرات حين وصف الجود عند مليكه . ويسير الأخطل بعد هذا في وصف الشجاعة والكرم فشبهه بالليث يتقدم مائتي ألف من الجنود ، لا يشبههم أنس ولا جان ، فيغشى الوغى بنفس لا تهاب ، ويهدم الأسوار والقناطر ، فلا تقفه حدود ولا سدود ، لأنه من قريش وقريش سادة العرب في الذروة من الخلق الكريم والجود الواسع والبطولة النادرة . وهو حين مدح يزيد بن معاوية والوليد قال فيهما مثل ما قال في عبد الملك ، فهو خليفة يستسقى بسنته الغيث ، شديد الهيبة ، عظيم البأس ، أسقاه على ظمأ ولم يحرم سائله ، فيأض العطاء .

والفرزدق مدح خلفاء بني أمية ، ورأى قوتهم في الخلافة ، وأعجب بشجاعتهم فهم أبطال منصورون وكرماء مشهورون ، فقال في هشام بن عبد الملك يرجو الندى على يديه :

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مِنْ خَلِيفَةِ أُمَّةٍ إِذَا الرِّيحُ هَبَّتْ بَعْدَ نَوءٍ جَنُوبُهَا^(٤)

(١) دغدغته : فرقته - آذى : موج - جاجي : صدور - غدر : ج غدير .

(٢) المسحنفر : السريع الجري - أكافيف : مناكب - زور : ميل .

(٣) الجهير : الرجل الرائع الجسيم .

(٤) النوء : إذا ناء النجم ، فلم يكن في نوءه إلا الريح ولم يكن فيه مطر .

فَهَبْ لِي سَجَلًا مِنْ سَجَالِكَ يُرَوْنِي وَأَهْلِي إِذَا الْأُورَادُ طَالَ لُؤُوبُهَا^(١)
وَكَمْ أَنْعَمْتَ كَفًّا هَشَامَ عَلَى أَمْرِي لَهُ نِعْمَةٌ خَضْرَاءُ مَا يَسْتَشِيهِهَا

فهو يلتمس دلوًا من دلاء ممدوحه ، وخيرًا من خيراتِه ينعم بها مع الأهل إذا
أجذبت الأرض وقل الرزق . وكَمْ لهشام من نعم خضراء على الناس ، وبذلك
يبين الشاعر عن حاجته إلى العطاء وموضعه من الاستجداء ، ويشكر للمنعم ماله
وأياديه ، يستعطفه ليعطى ويشنى عليه لكرمه . والشاعر يصف الوليد بن عبد الملك
بالبلدري ويجعل أمه الشمس ، ويمتدح انتسابه إلى لؤي بن غالب ، فيقول :

تَصَعَّدَ جَدُّهُ بِالْوَلِيدِ إِلَى الَّتِي أَرَى كُلَّ جَدِّ دُونَهَا يَتَصَوَّبُ
أَرَى الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ أَصْبَحَا يَمْدَانُ أَعْنَاقًا إِلَيْكَ تَقَرَّبُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا يَرْجَى كَرَامَةً بِكَفِّكَ أَوْ يَخْشَى الْعِقَابَ فِيهِرَبُ
وَمَا دُونَ كَفِّكَ انْتِهَاءٌ لِرَاغِبٍ وَلَا لِمُنْأَهُ مِنْ ورائِكَ مَذْهَبُ

فالجن والإنس تملأ أعناقًا إلى الوليد رجاء الخير والتماس الندى ؛ فكفاه
لا يحيد عنهما راغب ولا يذهب عن الطلب منهما ذاهب ، وهذا كرم مستفيض
يظهره الشاعر ويشهره . والنقاد يذهبون إلى أن مديح الفرزدق لم يكن عن
إخلاص وحب ، وإنما كان تقليدًا وواجبًا ، يخطئه بالتفاخر والاعتزاز
والتعاضم ، ويكسوه بالسؤال وطلب العطاء ، فقد هجا هشامًا ثم مدحه حين
أصبح خليفة المسلمين .

وجريير مدح عبد الملك بن مروان ، فاستجدى واستندى وتكسب كذلك

(١) السجل : الدلو - الأوراد : ج ورد ، وهي الإبل ترد الماء - اللؤوب : العطش .

فجعل الكرم أهم صفات المملوح ، وقدّم بين يدي ذلك غزلاً ونسيباً أو وصفاً على عادة القدماء ، فقال فيه :

أَغْنَيْ يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي بِسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَا^(١)
فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ عَلَى حَقًّا زِيَارَتِي الْخَلِيفَةَ وَامْتِدَاحِي
سَأَشْكُرُ أَنْ رَدَدْتَ عَلَى رِيثِي وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي
الَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ ؟

فهو يطلب إليه الغوث والكرم والسبب ، ويرجو أن يكسو عريه وأن يثبت قواده ، فهو كالطير إن لم ينجده لم يطر بين العالمين بذكر أو بشعر ، وانتهى إلى أن بنى أمية خير العالم وأنهم أندى الأقباط بطون راح ، وهذه الصورة أعجبت النقاد وأطربتهم ، فرأوا فيها أجمل الصور وأبدع التعابير في هذا الباب ، فكان البيت أطيب ما عرف العرب في المدح ، لأنه رفع ممدوحه فوق العالم وجعلهم أحسن الناس . وشاعرنا ملح هشاماً بمثل هذا ، وطلب منه المال لينقذه من همومه فقال :

كَعَرَّضْتُ الْهَمُومُ لَنَا فَقَالَتْ جَعَادَةُ أَيَّ مُرَّةٍ تَحَلُّ تُرِيدُ
فَقُلْتُ لَهَا الْخَلِيفَةُ غَيْرُ شَكٍّ هُوَ الْمُهْدَى وَالْحَكَمُ الرَّشِيدُ
وَتَبْدَأُ مِنْكُمْ نَعَمْ عَلَيْنَا وَإِنْ عُدْنَا فَمَنْعَكُمْ مُعِيدُ
تَزِيدُونَ الْحَيَاةَ إِلَى حَبًّا وَذَكَرَ مِنْ حَبَائِكُمْ حَمِيدُ
لَوْ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ سَعَى قَوْمٍ صَفَتْ لَكُمْ الْخِلَافَةُ وَالْعَهْدُ

(١) الارتياح : التحرك للعطاء والهاشقة له .

أرأيت إلى الحاجة كيف تسوق الشعراء إلى أبواب الخلفاء ، لعلهم ينالون من نعمهم ، فإذا بلغوا وطهرهم زادت الحياة إليهم حباً ، وفرحوا بالنوال فأشادوا بالخلافة وجدّوا لها عهد الحب والوفاء ، فإذا رأيت مديحاً فاعرف أن وراءه يداً أسداها الخليفة إلى الشاعر ، أنقذه من بؤسه أو خلصه من حبسه أو أقطعه إقطاعاً ، فحجب إليه الدنيا وحرّك لسانه بالثناء والشكر .

وهكذا نرى أن العصر الأمويّ كان كالعصر الجاهلي في المديح ، أشاد بالكرم عند الخلفاء وأثنى على الشجاعة ، وسعى إلى المال ، وتكسب لينال ، ويحظى بالجوائز والعطايا .

٢

فإذا انتقلنا إلى العصر العباسي رأينا الشعراء يمتدحون ويتكسبون كذلك بشعرهم يرجون النوال والعطاء . ولكنهم زادوا في معاني هذا المديح وصوره ، ما يتلاءم مع الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة ومواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلام ، وأضافوا على المعاني القديمة صوراً براقة تصف هؤلاء الخلفاء بما يتناسب وحاجة الملك الجديد ، فالخليفة على كرمه وشجاعته وبأسه وقوته وإشراق جماله وصورته ، يجب أن يكون نظيف الأعضاء جميل الملابس ينثر الطيب والعطور بين يديه ، يصلح الفاسد ، ويمنع الفاحشة ويأمر بالعدل والإحسان ، ويتعلق بالدين ، ويبتعد عن الرشوة وبيت المال ، ويقف من الشعب موقف العادل الأمين يجمعهم على حبه والإخلاص له ، ويقوم بسداد أمورهم فيدفع عن ثغورهم الأعداء ، ويبسط الأمن في البلاد ،

وذلك لأن مستلزمات الحكم كانت تستوجب هذا ، كما نقول اليوم بلغتنا
العصرية .

فبشار بن برد يمدح المهديّ فيرى أنه فتي قریش في مكارمه وتدينه :

فَتَى قُرَيْشٍ دِينًا وَمَكْرَمَةً وَهَبْتُ وَدَّرِي لَهُ بِمَا وَهَبًا
أَعْطَى مِنَ الصَّمْتِ وَالْوَلَانَدِ وَالْـ عَبْدَانِ حَتَّى حَسِبْتَهُ لَعِبًا
يَزِينُ الْمَنِيرَ الْأَشْمَّ بَعَطَ فَيَهْ وَأَقْوَالَهُ إِذَا خَطَبَا
وَتَشْرِقُ الْأَرْضُ مِنْ مَحَاسِنِهِ كَأَنَّ نُورًا فِي الشَّمْسِ مَجْتَلِبَا

وهكذا ترى أن الشاعر يذكر الدين والتقى وقوة الخطابة وإشراق الجمال
فكأنه يتغزل بمحاسنه وحديثه ، فيزين حبه للناس ويجمعهم حوله ، وبذلك
يشارك مع العصر في استحسان هذه الصفات الجليلة عند الممدوح ، فهي
صفات تتطلبها الحضارة العباسية كما قلنا ، ويقول في مكان آخر يمدح المهدي :

إِذَا غَدَا الْمَهْدِيُّ فِي جَنَدِهِ أَوْ رَاحَ فِي آلِ الرُّسُولِ الْغَضَابُ
بَدَا لَكَ الْمَعْرُوفُ فِي وَجْهِهِ كَالظَّلْمِ يَجْرِي فِي ثَنَائِ الْكَعَابِ^(١)
لَا كَالْفَتَى الْمَهْدِيُّ فِي رَهْطِهِ ذُو شَيْبَةٍ كَهْلٍ وَلَا ذُو شَبَابٍ

فالمعروف يلتفع في وجه المهدي كما يلتفع الشجر في الكعاب ، وهو يفوق
الشباب في جماله وبهائه . وهذا مديح جديد يصف إشراق الفضل في وجه
الممدوح ، يعطى وهو راض ويمنح وهو مبتسم ، فيضحك الخير في قسماته وتبدو
بشائر الجود والندى على محياه . ويزيد بشار أن الخليفة يكره الفحش ويضرب
أعناق الرجال وهو حلیم مظفر كريم ، شهيم وقور ، ونعلاه تشمههما في الندى
لشدة نظاقهما ، وأعضاؤه تثير الطيب لشدة طهارتها ، فكأنه الريحان في أنوف

(١) الظلم بالفتح : بريق الأسنان .

الندامى ، وهو ملك تسجد له الملوك يرعى حقوق العرب . ويلح الشاعر على هذه الصورة التى رسمها للمملوح يضحك للندى فيقول :

لَمَّا رَأَى بَدَتْ مَكَارِمُهُ نوراً على وَجْهِهِ وَمَا كُتِبَ
كَأَنَّمَا جِئْتَهُ أَبْشَرُهُ ولم أَجِءْ رَاغِباً وَمُخْتَلِباً

والكريم من يضحك حين يعطى ، فكأنك تعطيه الذى أنت سائله ، وتبشره بالبرح كأنك لا تسلب منه ولا تكتسب من ماله . ويبالغ بشار فى مديح الخليفة حتى ليرى عليه سياء النبوة ، ويقرر أن عنده حجيح القلوب تؤمته لترى الخير والنور والبركة . والأمن على ذلك مستتب فى جميع الربوع والأصقاع ، يسد الثغور بنخيل الله ملجمة ، ويصلح الفاسد ويدواى الصدور ، فتخضع له العرب والعجم لقوته وكرمه ، فهو يحيى البلاد بعد موتها ويخرج فيها النور بعد ظلمتها ، لذلك يدعو له بالبقاء وطول العمر ، لعل الله يجعل للبلاد الإسلامية على يديه النصر والفوز والعمران .

ولعل بشاراً من أوائل الشعراء الذين نقلوا مديح الملوك من ميدان الكرم والشجاعة إلى ميادين جديدة ، فيها حب الرعية والإخلاص للشعب والخير للبلاد حين تلفت العباسيون إلى هذه المعانى فاتخذها الشعراء ديدناً وألحوا على ذكرها . ومثله أبو نواس فى ذلك إذ سمى الرشيد «أبا الأمان» ورأى أن سياسته خير سياسة ، فقد نزع التحاسد بين الناس وألف بين قلوبهم ، وجمع شتات آرائهم ، فقال :

هَارُونَ أَلْفَنَّا ائْتِلَافَ مَوَدَّةٍ ماتت لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ
مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ فكأنما لم يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ
أَلْفَتْ مُنَادِمَةَ الدِّمَاءِ سَيُوفُهُ فلقلنا تحتَازها الْأَجْفَانُ

ومن لك بملك يجمع الشعب على مودة ، ويقتل الأحقاد والأضغان ، فتحبه

القلوب وتجعل له في كل حنية من حناياها مكاناً ؛ وهو لشجاعته تنادم الدماء سيوفه فقلما تختبئ في أجفانها ، وإنما هي مشهورة على العدو ، مسلولة على الظالم الباغي . وقد بالغ أبو نواس كما بالغ بشار من قبل فمدح الأمين وجعله خير الناس جميعاً لم يستثن منهم أحداً فقال :

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بَلْعَنَ « مُحَمَّدًا » فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَبْنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطَى الْخَصَى فَلَهَا عَلَيْنَا حَرَمَةٌ وَدِمَامُ
مَلِكٍ إِذَا عَلَقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ لَا يَقْتَضِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ

ولكننا نلمح في هذا المديح استجداء وحاجة وطلباً للمال يدعو إلى هذا القول والمبالغة فيه ، حتى يجعل الأمين خير من يمشى على قدم مما خلق الله من إنس ومن جان ؛ وهذه صورة أعجبت القدماء كذلك فجعلوها مثلاً يحتذى وقولاً يتردد في كتب النقد والبلاغة .

ومدح مسلم بن الوليد خليفة المسلمين هارون الرشيد فرأى فيه جامعاً للقلوب على المودة والإخاء ودفن الأحقاد والضغائن ، كما رأى بشار من قبل سواء بسواء فقال فيه :

إِذَا أُخْتَلَقَتْ أَهْوَاءُ قَوْمٍ جَمَعَتْهُمْ عَلَى الْعَفْوِ أَوْ حَدَّ الْحُسَامُ الْمَهْدَ

فهو يجمع الحلم إلى القوة ، والكرم إلى البطش ، وهو حين نظر إلى الأمين رأى فيه خليفة يجدد عهد أبيه في البأس والشدة :

خَلِيقَةُ اللَّهِ قَدْ ذَلَّتْ بِطَاعَتِهِ صَعَرَ الْخُدُودِ بَرَغْمٍ مِنْ مَرَاقِيهَا
أَحْيَتْ يَدَاهُ النَّدَى وَالْجُودُ فَاَنْتَشَرَا فِي الْأَرْضِ طَرًّا وَجَلَالًا فِي نَوَاحِيهَا
كَمْ مِنْ يَدٍ لِأَمِينِ اللَّهِ لَوْ شَكَرَتْ لَقَصَّرَ النَّفْسَ عَنْ أَذْنَى أَدَانِيهَا

فالخليفة يذل العصاة ويصغر الحدود ، ويحيى بيديه الندى والحدود فيعزم بهما الأرض وتنتشر مكارمه في الدنيا ، وتقصر النفس عن شكر آلائه ونعمه ، فراحته تهيئ المال ، وبيته في علياء مكرمة يقصر النجم عن أدنى مراقبها ، وهو لو حسبت عطاياه وعدت فضائله لقل الحساب وفشل الذي يخصى ، ذلك لأن الرجل أثبت دعائم الملك ، وأهلك الأعداء ، وقسم بينهم حظوظ المنايا ، ودفن الثورات والفتن بعد أن ثارت نارها وشب أوارها . فصريع الغواني يمجده البطولة والشجاعة والحكمة في أسلوب الحكم ، ويمتدح يد الخليفة في إشاعة الأمن ورخاء الشعب في زمن يهدد بالفوضى والشغب في أرجاء العالم الإسلامي . وأبو العتاهية كزميله يمتدح الرشيد للأسباب عينها ، ويرى فيه سيفاً مصلتاً على الرعوس الثائرة ، وحامياً للإسلام ، وناصراً للدين :

إِذَا نَكَبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بَنَكَبَةٍ فَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ نَاصِرُهُ

ولذلك يرى أن القدر ساقه إلى المسلمين فجعله خليفتهم :

أَتَمَّتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجَرَّرُ أَذْيَالَهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا

فلا تصلح إلا له ، وقد سعت منقاداً إليه تجرأ الذيل ، وقد شملت عن غيره وتأتبت على سواه . وظاهر أن الشعراء أحسوا بالحاجة إلى خليفة قوى فامتدحوا فيه هذه الصفات أو سعوا إلى نشدها عنده ، أو حثوه إلى أن يكون في هذا الموقع الرصين حيال الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، والعدو يترصد بالمسلمين الدوائر ، ويتجمع على الحدود المتاخمة ينتظر ثغرة في الثغور ليهجم منها ، فيحطم الأسوار ويخذل الجيوش . ولذلك وقف أبو تمام أكثر مديحه على هذه المعاني ، فرأى في المعتصم مفتاح النصر والظفر ، وسماه المعتصم المنتقم والمرغب في الله

المرتقب ، وقال إنه لم يغز قوماً إلا تقدم الرعب جيشه ، ولم يرسل جحشاً إلا كتبت له العزة والكرامة ، فأبطل عمود الشرك واستحق شكر الدين :

خَلِيفَةَ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ جُرْثُومِهِ الدِّينَ وَالْإِسْلَامَ وَالْحَسَبِ
بَصْرَتِ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ

وطبعي أن نرى في مديح الخلفاء صفاتهم الخاصة من كرم وندى وشجاعة وبأس ، مقرونة بحفاظهم على بيضة الدين وحوزة الإسلام ، وما ينال ذلك إلا بالتعب والسعي ، والجهاد والقتال ، فهو مدح يقترب بالحماصة والحث على الحروب ، وقمع الفتن والسير بالناس سيرة الرأفة والسكينة والوقار . وديوان أبي تمام يخصص بالمديح في هذا الباب يشيد بالفتوح والانتصارات وأساليب الحكم العادلة ، قد خص بها المعتصم والواثق والمأمون ، فكأنه مداح العصور العربية كلها ، وشاعر الخلفاء العباسيين ، في حسن ديباجة وجمال صيغة وأسلوب ، سالت في الديوان كل مسيل .

والبحتري سار سيرة أستاذه فأنبرى للمعتر بالله ووصفه بالتقوى والورع ونصرة الإسلام ، فهو من عليا قریش تناصرت ما أثره في فخرهم وله فيهم منصب مكين ومكان رصين ، فقد لبس المسلمون في عهده من نعم المعتر برُداً تزيد على السحائب في الرياض ، لأنه أخو حزم ساس الأمور ودفع النوائب واعتصم بالعزم والهدى ، فعمت البرية مناقبه ، وسار في الناس عدله :

فَمَا زِلْتُ حَتَّى أَذْغَنَ الشَّرْقُ عُنُوَّةً وَدَانَتْ عَلَى صَغَرِ أَعْلَى الْمَغَارِبِ
جُيُوشُ مَلَأْنَ الْأَرْضَ حَتَّى تَرَ كُنْهَهَا وَمَا فِي أَقَاصِيهَا مَفَرُّ لِهَارِبِ

ولسنا نعجب بهذا المديح ، فالخليفة يبسط ظلال الأمن في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، وهو يضطلع لهذا العبء السياسي على خير ما يرجو

المسلمون ، لذلك جعل الشعراء مدحهم أوفى لسيرورة ذكره وبسط اسمه في العالمين ، فهو يقول في المهتدى :

إِمَامٌ إِذَا أَمْضَى الْأُمُورَ تَتَابَعَتْ عَلَى سَنَنِ مِنْ قَصْدِهَا وَسَدَادِهَا
تَشَوَّفُ أَهْلَ الْغَرْبِ فَارِمَ بَعْزِمَةٍ إِلَى إِرَمٍ إِذْ مَا نَعَتْ وَعِمَادِهَا
لِتَسْكُنَ ضَوْضَاءُ الْعَرِيشِ وَتَنْتَهَى فَلَسْطُونُ عَنْ عِصْيَانِهَا وَعِنَادِهَا

وهكذا رسم للمهتدى حدود مملكته ووارف عدله فيها ، وذكر أياديه عايتها ، فهي تنام مطمئنة حين يسهر الخليفة على رعايتها وحفاظها . والبحتري لا يقف عند هذا في مديحه لأعمال الخلفاء ، وإنما يتطرق إلى ذكر صفاتهم الخاصة ، فيشيد ببلاغتهم وفصاحتهم كما أشاد بشار وأبو نواس من قبل ، فقال في المعتمد على الله .

وَإِذَا تَكَلَّمَ فَاسْتَمِعْ مِنْ حُطْبَةٍ تَجَلُّوْا عَمَى الْمُتَحَيِّرِ الْمُرْتَادِ
أَفْضَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَصَادَفُوا أَدْنَى الْبَرِيَّةِ مِنْ تَقَى وَسَدَادِ

فالخليفة خطيب بارع وفصيح متكلم ، يجمع بين برديه ذلاقة اللسان وقوة البيان وطهارة النفس وسداد الفكر ، إلى عدالة يبسطها في الرعية وأمن يعمه في الأمصار ، فأحيا صفات المديح في الجاهلية والإسلام وأضاف إليها مديح العباسيين وما يستحسنونه من خلفائهم ، وقد اتسعت رقعة الملك وفاضت المشاكل وكثرت الحروب . ويعترف البحتري بأنه ينظر إلى المثل العليا عند الأجداد يحياها الخليفة ويكمل بها سيرة الآباء ، فيقول في المتوكل على الله :

أَحْيَا الْخَلِيفَةُ « جَعْفَرُ » بِفَعَالِهِ أَفْعَالَ آبَاءِ لَهُ وَجُدُودِ

ولا بد لنا من القول هنا أننا حين نستعرض صور المديح نلمح رسوم المعارك والغزوات وقد احتدمت الحروب ، واهتزت الأرض ومالت بثقلها ، فإذا طلع وجه الخليفة انجلت السحب وانقشع الجو ، وذكر المحاربون بطلعة أمير المؤمنين طلعة النبي في غزواته فهلّلوا وكبروا إجلالاً وتوقيراً ، والخليفة على ذلك متواضع خاشع لا يزهى ولا يتكبر :

وَمَشَيْتَ مِشْيَةً خَاشِعَةً مُتَوَاضِعٍ لِلَّهِ لَا يَزْهُو وَلَا يَتَكَبَّرُ
فَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَمَشَى إِلَيْكَ الْمَنْبَرُ

٣

وذلك يدعوننا إلى التفكير بهذا المديح يرسله الشعراء العباسيون فيصفون عليه طابع الحماسة والدين والسياسة إلى المديح الخالص الذى يرسم صفات الخلفاء ومزاياهم ، فهم لا يستطيعون أن يفصلوا بينها فى ذلك العهد لأنها مما يرفع شأن الحكام ويعلى مقامهم فى أعين الشعوب ، فلم يقصدها إلى السياسة قصداً أو إلى الدين عمداً ، ولكنهم جعلوها من حسنات الخليفة وأياديه ، فأضافوا إلى المديح الأمور نظرة واسعة إلى أعمال الخلفاء لم تكن من قبل ، ساق إليها ظرف جديد ومحيط جديد ، يجب فيه على الحكام أن يلتفتوا إلى حال الشعوب ؛ يدفعون عنهم البؤس والنحس والفوضى والفتن ، ويقفون فيه على الأمن والرخاء والعدل والنصر ، وبدونه لا يقع الخليفة من نفس المسلمين موقعاً حسناً . والشعراء أحسوا بهذا فأشركوه بمديحتهم وأدخلوه فى معانيهم ، ليدخلوا فى أذهان الناس أن الخليفة على صفاته الخلقية الشخصية ، يعنى بالمسلمين فى كل ما يلزم بأمورهم ، وذلك كما

ينفعل أرباب الصحافة الحزبية لعصرنا ، يعانون الخير ويلمحون به ، ويجمعون للزعماء صفات العدل والنظر إلى أمور الرعية ، فتصدق الرعية ما يقال وتسير وراء هؤلاء السادة القادة . وذلك أدركه شعراء بني العباس منذ ألف عام ، فكسبوا للخلفاء نصر الجماهير وجمعوهم على حبهم ، بأساليب مختلفة من البيان يوطئون بها أكتاف المديح فيستعملون الصور والمعاني التي تطرب الشعب وترقص خياله ، فيقع لهم ما يريدون من مديحهم سواء أكانوا صادقين أم دعاة متحزبين ، فالبيان كالسيف يبنى ويهدم ويضع ويرفع ، وكثيراً ما يصنع المال في كسب البيان ويكون المديح .

ونحن حين نقول ذلك إنما نمهد به لعهد جديد ، تقسمت فيه الممالك وكثر الملوك ، فأصبح الحكام يشترى المديح ويهبون من أجله ، وكان التنافس بين هؤلاء الملوك كتسابق الأحزاب السياسية اليوم ، لذلك كثر المديح في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي ، وهب الشعراء يتنقلون من مملكة إلى مملكة وراء الممدوح ينالون أجر ما ينفقون من قصيد ويروجون من دعاوة ؛ فقد أحدق الأعداء بالممالك وأصبح لكل بلاط جيش ، ولكل جيش مهمة ، وللشاعر أن يحث الهمم وأن يشيد بنضال الملوك وصبرهم على القتال والجهاد .

وأبو الطيب المتنبي من خير من يصور المادحين ويمثلهم في هذا الميدان ، فقد انتقل من ملك إلى ملك ، وشهرته تسبقه في المديح ، فقام في كل بلاط مقام الصحيفة السياسية اليوم ، فامتدح سيف الدولة لحروبه وانتصاراته ضد الروم الغازين أو القبائل الثائرة ، ورأى فيه الملك المنقذ والقائد الحكيم والأمير السخي ، ورسم غزواته وسراياه تترى ، والدمستق هارب محجر ، والجيش الرومي موزع بين القتلى والأسرى ، وأموال العدو نهبي ؛ فصوره كالليث أو السيف أو الغيث ، وقال إنه يملك أنفوس الثقلين يحصى أنفاس الأعداء ، فهو

سيف الله لا سيف خلقه ، وهو أطعن من مس سيفاً ، وأضرب من أمسك بحسام ،
يتصرف بالردى ويسوق المنايا :

فَأَنْتَ حَسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ وَاللَّهُ عَاقِدٌ
أَحَبُّكَ يَأْتِمُسُ الزَّمَانَ وَبَدْرَهُ وَإِنْ لَا مَنَىٰ فِيكَ الشُّهَاءُ وَالْفِرَاقِدُ

فهو شمس الزمان وبدر الوجود ، ولواء الدين وحسام الملك ؛ وهو محض
الحلم في محض القدرة ، يفوق الناس رأياً وحكمة كما يفوقهم حالاً ونفساً
ومحتداً . إنه حامي الثغور وقائد الكتائب وبطل الأبطال . وسيف الدولة فوق
ذلك كله مجير الشعراء ينيلهم من عطاياه وجوائزه ، حتى قال فيه أحد المؤرخين
إنه كان يهدم قرية ليحجز شاعراً ، ولذلك قصده المتنبي وصارحه بحاجته إلى
المال ، وطلب إليه ضيعة أو ولاية وإقطاعاً كما طلب إلى غيره من الملوك ، فقال
يخاطب سيف الدولة :

أَجَزْنِي إِذَا أَنْشَدْتَ شِعْراً فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْقَائِلُونَ مُرَدِّدَا
تَرَكْتُ الشَّرَى خَلْفِي لَمَنْ قَلَّ مَانُهُ وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنُعْمَاكَ عَسَجِدَا
إِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ أَيَّامَهُ الْغَنَى وَكُنْتُ عَلَى بَعْدِ جَعَلْتِكَ مَوْعِدَا

وقد اعترف الرجل بأنه طلب ونال فخلف الفقر وراءه وأنعل أفراسه عسجداً
بفضله ، وبلغ إلى الغنى ، فلم يخف سعيه وراء المال والمجد ؛ ومديحه ديوان
يعدّد أجداد سيف الدولة ومفاخره في معاركه وغزواته ، فيخفف الانكسار
ويبسط الانتصار ، وكأنه صحيفة شعرية لتاريخ هذا الرجل ، أو سفر ألفه في
مدحه وسيرورة ذكره كما ألف القاضي ابن شداد في صلاح الدين ، أو ابن
قاضي شبهة في نور الدين ، أو كما يصنع الغربيون اليوم في نشر محامد المترجمين ،
لم يغادر كبيرة ولا صغيرة من حياته إلا صنع منها موضعاً للمديح ، حتى جعله

أعظم العرب قاطبة ، بل إن العظماء يتمنون في عصورهم كلها شاعراً كالمتنبي
يرفع ذكرهم ويشيد بما ثروهم ، ولكن أنى للعصور أن تلد لكل جيل مداحاً كأبي
الطيب ؟ وهو مع ذلك يأسف أنه لم يستوعب كل مزايا سيف الدولة ومناقبه ،
فيقول :

لَيْتَ الْمَدَائِحَ تَسْتَوِي مَنَاقِبَهُ فَمَا كَلَيْبٌ وَأَهْلُ الْأَعْصَرِ الْأَوَّلِ
خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحُلِ
إِنَّ الْهَمَامَ الَّذِي فُخِرُ الْأَنَامُ بِهِ خَيْرُ السُّيُوفِ بِكَفِّي خَيْرَ الدُّوَلِ
تُمْسِي الْأَمَانِي صَرَغِي دُونَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذَلِكَ لِي

ذلك لأن التواريخ العربية تضرب المثل في العز ، فتقول : « أعز من
كليب » ولكن المتنبي لم يرض لمليكه هذا بل رفعه فوقه ؛ وجعله كالشمس في
نورها وإشراقها ، وأين نور الشمس إذا قورن بضوء زحل ذلك الكوكب البعيد ؟
ثم وضع سيف الدولة في جنان النعيم تتسابق الأماني صرعى في سبيل رضاه فما
يجد ما يتمنى ولا يأسى لفقد شيء لأنه فوق الرغبة والأمنية ، ومثله لا يسعى إلى
شيء ، وإنما تسعى إليه الدنيا ومناقبها . والمتنبي هنا بلغ مرتبة في المديح لا ينافسه
فيها شاعر ، إذ ركب متن الخيال فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعابير ،
يلدفعه إلى المديح حب مليكه وإعجابه بعروبته وشجاعته ، ووقوفه للأعداء وقفة
الأسد الهصور والصور المنيع . وشاعر القرن الرابع كالتابغة يفضل مليكه على
الملوك جميعاً ، فهو شمس وهم الكواكب ، وهو بحر والملوك جداول :

أَرَى كُلَّ ذِي مَلِكٍ إِلَيْكَ مَصِيرُهُ كَأَنَّكَ بَحْرٌ وَالْمُلُوكُ جَدَاوِلُ
إِذَا مَطَرَتْ مِنْهُمْ وَمِنْكَ سَحَابٌ فَوَابِلُهُمْ طَلٌّ وَطَلٌّ وَابِلُ

فهو المطر المنهمر في سخائه وجوده وكرمه وهم كالطل الشحيح ، وإنه الفتى

المغوار والمليك الحلاحل تطيعه الأرواح وتلتف حوله القبائل ، وتقبل بساطه الملك ، والأعداء في الدنيا عبيده والأموال كلها غنائمه ، وقد ظلمه من سماه سيفاً فما كل سيف قاطع ، ومكارمه كالسيوف تقطع الشدائد جميعاً . ويتجاوز المتنبي الجود إلى الشجاعة فيرسم سيف الدولة في صورة بارعة لا نرى فوقها في مديح القواد والشجعان الأبطال يقول :

تمرُّ بك الأبطال كلُّى هزيمة وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتُفْرِكُ بِاسْمُ
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّهْيِ إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ : أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمٌ

وهذه الصورة يخطبها إسكندر المقدوني ونابليون وغيرهما من قواد الغرب فلا يقعون على مثلها ، وتراها تتهادى في خطب ودّ سيف الدولة لتجعله في قادة الدنيا وأبطال العالم ، وتهبه العلم بالغيب والمعرفة بالأقدار ، فهو يقف وسط المعارك الصاخبة ضاحكاً لأنه يملك الزمان بكفيه ، ويتحكم في الحروب ببأسه ، وينتهى في مدحه إلى غاية بعيدة المدى فيقول فيه :

القائمُ الملكُ الهادي الذي شهدتُ قيامه وهداه العربُ والعجمُ
لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إنَّ الكرام بأسخاهم يداً خُتِمُوا

وهكذا لم يترك واسطة لمديحه إلا بذلها ، فحتم على غيره وسدّ الباب على الأستخياء الكرام وجعله خاتم الممدوحين ، ولكن النقداد على ذلك يرون أن هذا المديح متكسب يحته المال وتدفعه العطايا ، يجلبلج باللفظ الضخم والعبارة المتينة ، ويصلمر عن اللسان لا الجنان . وخيرٌ منه في نظرهم مديح أبي فراس الحمداني ، فقد كان من قريب إلى قريب وحبيب إلى حبيب ، يندفع عن صداقة وإعجاب خالص لا يعكره طلب ولا تفسده عطية ، إذ يقول في سيف الدولة :

فليتَكَ تَحْلُوَ والحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وليتَكَ تَرْضَى والأَنَامُ غَضَابُ
وليتَ الذى يبنى وبينكَ عَامِرٌ وبينى والعالمينَ خَرَابُ
إذا صَحَّ مَنكَ الودُّ فالكلُّ هَيِّنٌ وكلُّ الذى فوق الترابِ تَرَابُ

وهذا هو المديح العف الذى يطلب الود ويسعى إليه ويغليه عنده ، وكل ما علمه فى نظره تراب ، وهو أحسن المديح وأجمل الحب ، لأنه يشيد بالأيدى ويعترف بها فى تواضع وصدق :

فكم لكَ عِنْدِي مِنْ أَيْدٍ وَأَنْعُمٍ رَفَعْتَ بِهَا قَدْرِي وَأَكْثَرْتُ حُسْدِي
فسيف الدولة قد رفع للأسرة مناراً ، وبنى لها عزا قوَى الدعائم ، وشيد مجداً مشتهل المرائر ، لذلك وهبه الشاعر نفسه وهى عزيزة عليه :

شَرَيْتَكَ مِنْ دَهْرِي بَذَى النَّاسِ كَلِمَهُمْ فَلَا أَنَا مَبْخُوسٌ وَلَا الدَّهْرُ بَاخِسُ
ومَلَّكَتْكَ النَّفْسُ النَّفِيسَةَ طَائِعاً وتَوَهَّبَ لِلْمَوْلَى النُّفُوسُ النَّفَاسُ

وفى هذا القول اعتزاز بالملك ، ومديح صاف لشخصه ، وإكبار لبطلته وقدره ، فكم رسم فى قصيده من صور القتال الذى خاضه سيف الدولة حتى اشتكت الخيل من طول السير والنضال ، وعرف الروم أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل بجوار هذا البطل الذى يزور الثغور فى كل ساعة ، لا يشيه خوف ولا يحجبه رعب .

ومدح السرى الرفاء سيف الدولة كذلك فرأى فيه ليثاً يصول ، له فى كل أنملة سحاب وفى كل جارحة شهاب ، خضعت له آفاق البلاد ، وذلت له رقاب الملوك واعتز به الإسلام ، فهو غمام تخشى صواعقه ، وهو كالدهر لا تكبو حوادثه ،

والحمد ينتسب إليه لما قام به من غزو الروم والإحسان إلى الناس ، فهو في السلم
أمير يعطى وفي الحرب قائده يستلب النصر والظفر :

فيوم الحرب تطربك المذاكي ويوم السلم يطربك النشيدُ
وأنت الدهر إنعاماً وبُوساً وما للدهر نعامه حسودُ

وقد أطل الشاعر في مديحه ، فخصه بقصائد كثيرة عامرة تجعله حيناً كالبلدر
في حسنه والغمام في جوده ، يحن إلى ورد المنية ، وتجرى سعوده في البرية ،
يشغل الناس من أصدقائه وأعدائه ، أولئك لا يفرغون من ذكره بالخير وهؤلاء
لا يفرغون من ذكره بالخوف . وابن نباتة السعدي امتدح سيف الدولة كذلك
فراه كريماً يبذل مهجته في سبيل غيره ، ويعلم الدهر فضيلة الكرم والخلق الجميل .
وكثير من الشعراء التفوا حول هذا الأمير يتنافسون في مديحه واختراع الصور
الجليلة في وصفه ، فجعله الوأواء الدمشقي يلبس الأيام ثوب شبيهة بعد أن شابته ،
ووضع المنايا تحت ظل سيوفه ، ورسمه بأنه كعبة الآمال وسيد الشجعان ،
يلبس الدروع كالغلائل ، ويركب الموت كما يركب الخيل ، ويلخص القول فيه

أمانٌ لمرتاع وروع لآمن وكهف لمطلوب وحربٌ لغالب

٤

وظل هذا المديح المتكسب يتقلب على العصور الإسلامية منذ العصر
العباسي ، فيزداد عكوفاً على الصور التقليدية ، ويردّ ما قيل من قبل ،
ويعيد على المسامع ما قاله هؤلاء الفحول لأنهم بلغوا ذروة المديح ، ولا بدّ

من انحدار بعد هذا العلوّ الشاهق ، فأصبح الشعراء في محيط ضيق من المعاني وعدد محدود من الصور ومعجم مرسوم من الألفاظ والتراكيب ، كأنّ الخيال قد بلغ النهاية ، فليس للشعراء أن يضيفوا في مديحهم للملوك إلا ما يقع في الندرة بعد الندرة من فكرة طارئة وحادثة طارقة ، فالدول تخوض المعارك والأعداء في ازدياد ، والغزوات كانت من الروم فأصبحت تفد من أوربة ، تحمل الدمار والنار إلى قلب البلاد الإسلامية ، فنهض المداحون للمعاني الباسلة والصفات الفاضلة يلصقونها بملوكهم ، فهم في جهاد و قتال ، والملوك قواد الجيوش ووزراء الدفاع ؛ وهم قطب الرحى في المعارك ؛ عليهم يتوقف النصر ومن أيديهم تسيل الأموال . واستوى في هذه الصور شعراء المشرق والمغرب فأولئك وهؤلاء كانوا يرون الأعداء تهجم على هذه المملكة الإسلامية الشاسعة من التبت إلى شطآن الأطلنقى يريدون بها شراً وخزياً ، ويريد لها الشعراء نصراً وفخراً .

كذلك وقف ابن هانيء الأندلسي يمدح المعز ، فيرى فيه الشجاعة والكرم ، فيجعل الملائكة منزلة لنصره ، يطيعه الإصباح والإمساء ، وعليه من سيما النبي دلالة ، وعليه من نور الإله بهاء ، تفر منه الأعداء وتسقط أمامه الهامات ، وهو معز الدين والحدود وهادى الرشاد ، وهو ضياء الظلام إذا اطمأت الدنيا :

فَأَنْتَ سَيَّرْتَ مَا فِي الْجُودِ مِنْ مَثَلٍ بَاقٍ وَمِنْ أَثَرٍ فِي النَّاسِ مُحَمَّدٍ
لَوْ خَلَدَ الدَّهْرُ ذَا عِزٍّ لَعِزَّتْ كُنْتَ الْأَحَقُّ بِتَعْمِيرِ وَتَحْلِيدِ

وكذلك استعمل ابن هانيء صور القدماء فجعله مثلاً سائراً للجدود ، شجاعاً في الأسود ، وبحراً طامى العطاء ، وهو فوق الملوك ، يلهون ويجدّ ، وهو جوهر وهم عرض ، وهو غيث لا ينقطع :

النُّورُ أَنْتَ وَكُلُّ نُورٍ ظِلْمَةٌ وَالْفَوْقُ أَنْتَ وَكُلُّ قَدَرٍ دُونُ

وبالغ ابن هاني حتى عدا الحدود فقال في المعز الفاطمي :

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكم فأنْتَ الواحدُ القهَّارُ
وكأنَّما أَنْتَ النَّبِيُّ « مُحَمَّدٌ » وكأنَّما أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ
أَنْتَ الَّذِي كَانَتْ تَبَشِّرُنَا بِهِ فِي كُتُبِهَا الْأَحْبَارُ وَالْأَخْبَارُ

وجعله كالنبي محمد ، مرسلًا ونبيًا تدعمه الأنصار التي ساندت النبي وتخبر عنه كتب الأخبار والأخبار ، بل جعله فوق الأقدار يتحكم بها كأنه الواحد القهار ، وهذا منتهى ما يبلغ إليه المديح ، فالحليفة ظل الله على الأرض فيما يقولون ، وهو شجاع وكريم ، ولكنه لن يرقى رقى الأنبياء ، ولن يبلغ مقدرة الإله ، وإنما هو الشعر المتكسب يخدع الناس ويصور لهم البشر أنبياء وآلهة ، وما ذلك إلا لأنه ضاق ذرعًا بالمعاني المطروقة والألفاظ المعروفة فأراد أن يخرج عن الحدود المرسومة والسنن المعلومة ، فسقط في التهويل والكذب والمبالغة ، فقال الصابي يمدح عضد الدولة :

صلِّ إذا العلاءُ لربِّكَ وانحر كلَّ ضدٍّ وشانِيٍّ لَكَ أَتَبَرُ
أَنْتَ أَعْلَى مَنْ أَنْ تَكُونَ أَضَاحِي لَكَ قُرُومًا مِنَ الْجَمَالِ تَعَفَّرُ
بَلْ قُرُومًا مِنَ الْمُلُوكِ ذَوِي السُّؤْ دَرِّ تِيجَانِهَا أَمَامَكَ تُنْتَرُ
كَلِّمًا خَرَّ سَاجِدًا لَكَ رَأْسُ مِنْهُمْ قَالَ سَيْفُكَ : اللَّهُ أَكْبَرُ

وجعله في مقام الإله يسجد له الناس ، صاحب طغيان وجبروت يفوق البشر ويغلب الأقدار . وليس ذلك كثيرًا إذا قيس بالزعفراني حين قال في ممدوحه :

أنتَ الذى دِنتُ بالسجود له حتى لقد قيل : ربّه صَنَمٌ

ولا تسل عن غلو المجوس والفرس الصائبة في مديحها للملوك ، وتفضيلها للفرس على العرب ، وذلك للضعف السياسى الذى أصاب الأمة العربية ، وقسمها شيعاً وأحزاباً ، فضاعت الموازين واختلت المقاييس ، وركب المديح كذبٌ ليس فوقه كذب ، وكان ذلك مؤذناً بجأمة هذا الفن ومصرعه على أيدي هؤلاء الغلاة .

٥

أجل ، سقط المديح فأصبح الشعراء يلحون في طلب المال ويمجدون طلباتهم في صراحة تبلغ القحّة ، يبيعون شعرهم ونفوسهم وينزلون إلى درك الطلب والمسألة . فإن كان المتنبي طلب ضيعة أو ولاية فالشاعر عمارة اليمنى سأل شمس الدين تورانشاه ما لم يسأله أحد مثله :

فأمنن على بنصف الألف راتبةً فقدرُ ودك لا يحويه مقدارُ
مقسومة في شهور العام تحمل لى أقساطها كل شهر وهى إدراُ

فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على شهور العام في أقساط تحمل إليه ليعيش ويتعيش ، وهذا في نظرنا نهاية المطاف بالشاعر الحرّ ، ونزول إلى درك السائلين الشحاذين ، وبعد عن العفة والإخلاص في المدح ، وكشف عن أستار المادحين وسقوط بمرتبة المديح في ظاهر اللفظ وصريح الطلب ، كما فعل سبط

ابن التعاويذى حين عاتب الملك العادل يوسف بن أيوب فى عطائه وطلب إليه أن ينظمه على صلّات موقوتة معينة من العام :

وكان يا « يوسف » السماح بنا إلى عطايك شوق « يعقوب »
حاشاك أن ترسل الصّلات على غير نظام وغير ترتيب

فتلاعب باللفظ وجعل شوقه إلى مليكه يوسف شوق يعقوب إلى ابنه ، ثم عاتبه بعد ذلك على النظام والترتيب فى إرسالها ورأى أن لا يسوى بينه وبين غيره فيها :

سوَّيتَ بى فى العطاء مَنْ لا يجا رينى فى مذهبي وأسلوبى
وغيرُ بدع فالتَّحَبُّ ما برحت يقلّ منها حظ الأهاضيب
شعرى ربُّ الأشعار قاطبةً وهل يُسوَّى ربٌّ بمربوب ؟

وهو فى هذا يضرب على حوافر المتنبي مع بعد الزمن وفارق العبقريّة ، فيقلّده حين طلب أبو الطيب إلى سيف الدولة أن يجزيه لكل شعر يسمعه من الشعراء فهم صدق لشعره ينتحلون منه ويسرقون ويتقدمون به فى المديح ، يرددون ما قاله فكأنه يريد أن يختص نفسه بالعطايا والصلّات وأن يحرم منها غيره ، وهو وحده الشاعر وغيره نظام لا يجيد أمراً . وقد صدق المتنبي فأصبح الشعراء يقلّدونه فى مديحه وهم أصداء لشعره من غير شك ، يسألون كما سأل ويلحون كما ألح ويبالغون فى ذلك ، حتى أسفوا فى المسألة والإلحاح والأنانية .

وأصبح المليك فى نظر الشعراء مقسم الأرزاق والآجال بين الورى ، فيقول سبط بن التعاويذى فى مليكه :

قسَمْتُ يمينك فى الورى الأرزاقَ والـ آجالَ بينَ مُنى وَبينَ مَنْونٍ

وأرئيتنا بجميل صُنْعِكَ مَا رَوَى الرَّأوون عَنْ أُمِّ حَلْتٍ وَقُرُونٍ

فجعلله في مقام الإله - عز وجل - يمنح الأرزاق والآجال ، تتعلق به النفس ويقف اللسان على مدحه وإجلاله دون الله ، كأنّ المديح عبادة وصلاة يرتلها الشعراء أمام هؤلاء الآلهة الصغار ، وبذلك يعودون بالشعر العربي إلى وثنية دونها وثنية اليونان ، فيحكون عن ملوكهم أساطير لاتشبهها أساطير القرون الأولى ، ويسقطون بالمديح سقوطاً يظل أجيالاً وقرُوناً يتردى في حفرة الجهل والظلمات ... ولما كان القرن التاسع عشر للميلاد نهض المداحون لملوكهم ، فراحوا يقادون الشعر القديم ، ويتخذون من ألفاظه ومعانيه ميداناً يرتعون فيه ، فقال محمود الساعاتي في « ولي النعم الخديوي الأعظم » إنه أنار الدنيا ودان للملكه كل مسود ، فعمّ نور العدل مصر ، وأشرقت بسماحته وجوده ، وتولى الجور عنها ، فبشرى لأهل البرّ والبحر والعلی ، إنه المليك الكريم الشجاع ، يبعث الرعب في الأعداء ، ويكسب الغنى جماعة الأصدقاء ، وجيشه جرّار وعسكره يملأ الأرض ؛ فلما سافر الخديو إلى الحج قال فيه :

مَلِكٌ تَتَوَجَّجُ بِالْوَقَارِ عَلَيْهِ مِنْ حُلَلِ الْمَهَابَةِ وَالْكَمَالِ رَدَاءُ
يَسْعَى إِلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ مُسْرَبلاً بِخَشْوَةٍ وَأَمَامِهِ الْأَضْوَاءُ

وهو على هذا الشعر الركيك يخرج علينا بصور ممسوخة في تشطير ضَمَنه التاريخ في الشعر على عادة العصر ، فسقط وأكثر من السقوط حتى عددنا المديح هزياً لا يسمو إلى ابتكار ولا يجري مع الفحول في مضمار . ومحمود سامي البارودي أعاد للمديح أسلوبه المتين ولفظه القديم ، وأضاف إليه صوراً استقها من العصر ، فاستعمل البرق في تصوير بشر الخديوي ، وجعله كالطبيب في شفاء الأمة ثم قال :

لَا زِلْتَ فِي فَلَاكِ الْمَعَانِي كَوَكَبًا تَهْدِي الضِّيَاءَ لِأَعْيُنٍ وَقُلُوبٍ

وقلّد القدماء كذلك في امتداح حسنات المليك وخدماته للشعب ، وخيراته في الوطن ، فقال إن مصر أصبحت في عهده شرعة للورّاد ، يرعاها برأفة والد ، ويحميها بصولة أسد . وقدّس المشورة في الحكم وهي حلية كل راع مرشد ، أوصى بها الدين وتقيد بها الغربيون . ورأى فيه نوراً وهداية وسعداً وغنماً للأمة والوطن . وهكذا قلّد القدماء في رفعة المليك واتخذ التعابير العصرية سبيلاً إلى ذلك ، وحذف كلمة العرب والعجم واستبدل بها الشرق والغرب ، وقال بأن الخديو بعث السلم في الناس ، وأزاح ضباب الحرب ، حتى دعا له بالخلود إلى قيام الساعة :

وَدُمَّ عَلَى الدَّهْرِ فِي مُلْكٍ تَعِيشُ بِهِ مَرْفَعَةَ النَّفْسِ حَتَّى نَفْخَةِ الصُّورِ

وسار حافظ إبراهيم على خطة البارودي في مديح الخديو عباس الثاني في مطلع القرن العشرين ، يجد فيه عزيز مصر ، ويحمد فيه أياديه على الوري فهو حلیم عادل ، وهو ابن أكرم من ساروا ومن ملكوا ، وهو الأب المقتدى أجرى الخير في النيل فاهتزت جوانبه ، وفاض بالنعمة كل سهل وواد ، وهو بناء الرجال ، أخلصت له الأمة في سرّ وإعلان ، ولولاه ما طلب الشعب حقاً ولا شعر بحبّ الأوطان :

حَسْبُ الْأَرِيكَه أَنْ اللَّهَ شَرَّفَهَا فَأَصْبَحَتْ بِكَ تَسْمُو فَوْقَ كَيَوَانٍ^(١)

وحافظ إبراهيم يدعو لرفعة الشرق ، ونهضة الصقر بعد طول خمول على يدي مليكه وهو محبوب ومحروس .

فَعَرْنُشُكَ مَحْرُوسٌ وَرَبُّكَ حَارِسٌ وَأَنْتَ عَلَى مَلِكِ الْقُلُوبِ أَمِيرُ

(١) كيوان : اسم للكوكب زحل بالفارسية .

ويعتمد حافظ في مديحه على خطة القدماء في نصرة المليك للدين وعمله لرفعة الإسلام وحربه للشرك ، ولذلك يمدح عبد الحميد فيرى أنه تجلى في يلديز على عرش الجلال وتاجه يهش بالنعى والمجد ، والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يدعون له ويلحون في الشكر إلى الله يلتمسون له النصر ، ويشنون على أياديه في كل مكان ، فهو يسكن القلوب جميعاً ويرتعى حباتها ويحل في الوجدان . ويشيد حافظ كذلك كما أشاد البارودي بالشورى ، ويشكر للملك أنه أقام شريعة الديان ونصر الإسلام بمدافعه وقنابله وبنادقه :

فَلَهُ عَلَى الدُّنْيَا الْجَدِيدَةِ نِعْمَةٌ يَشْدُو بِذِكْرِ صَنِيعِهَا الْفَتَيَانِ^(١)

فالشاعر يمدح الملوك كما مدح القدماء ملوكهم ، لأنهم أقاموا عمود الدين ، ودافعوا عن حياض الملك ، ورفعوا لواء الإسلام ، وعملوا على نهضة الشعوب الإسلامية ، وكان يعجب بالخلفاء الراشدين وعمر بن الخطاب خاصة ويرجو للحكام أن يقلدوهم ، ولذلك رسم سيرة عمر في شعره لعل الناس يعرفونها ويأخذون بها ، ولعلمهم يستعيدون ماضى الإسلام حين كانت شوكته في كل مكان ورفعته في كل جانب ولواؤه في كل صقع .

وأحمد شوقي حمل اللواء في هذا العصر ، ومدح الملوك مديحاً لا يخلو من جدة وطرافة وجمال وجلال ، فجعل ديوانه سجلاً لتاريخ الإسلام والأمة المصرية ، وما كان للمسلمين والفراعنة من عزٍّ ومجد وتاريخ خالد . وقد استوى في مديحه على صيغ وتعايير تنهض مع العصر وتحلق مع الزمان ، فقال في عبد الحميد إنه نهض بعرش ينهض الدهر دونه خشوعاً وتخشاه الليالي وترهبه الأيام ! وأنه عين جارية تفيض على مر الزمان وتعذب على الدهر . فتحي موات الأرض ودارس الرسم فكأنه عيسى ، عليه السلام .

(١) الدنيا الجديدة : أمريكا - الفتیان : هما الليل والنهار .

وسجل شوق أعمال الخليفة للمسلمين ؛ فقد ناموا في غبطة قريرى العين ، لأنه ساق إلى الأعداء جيشاً أفشى في البلاد من الضحى ، وأبعد من شمس النهار ، يرمى به البحر من كل جانب ويرسله في كل شعب فينتصر ويظفر . وهو بذلك يذكرنا بشاعر الحمدانيين المتنبى إذ يصور جيش سيف الدولة ، ويعيد إلى أذهاننا ذكرى الحروب بين العرب والروم في رسم هذه المعارك والغزوات . وشوق يقف بباب الملوك كما وقف المتنبى من قبل ، ويمتدح هؤلاء لعكوفهم على الدين ونصرتهم للإسلام ، ولولا هم لضاع الملك وتشتت أواصر الخلافة ، فهو كشعرائنا القدماء في هذا سواء بسواء .

ولا يقف شاعرنا عند المسلمين ، وإنما يعود إلى ماضى مصر ، فيمتدح ملوكها القدماء ويشيد بأمجادهم وتاريخهم وأيادهم على أرض النيل . ويتنقل بعد ذلك إلى ملوك مصر المعاصرين من سلالة محمد على فيخلص لهم الود . ويمحضهم المديح .

وكان أحمد شوقي في مديحه صورة للمديح في أدبنا العربى منذ النابغة حتى اليوم في أغراضه وصوره ، لا يختلف عنه إلا في أساليبه الجديدة التى أخذت من روح العصر وتعايير المحدثين ، فارتفع بالمديح التقليدى إلى مرتبة تجعله بحق شبيهاً بأبى تمام فى العباسيين ، والمتنبى فى الحمدانيين .

* * *

ونلاحظ أن المدنية الحديثة وتيارات الأدب لم تبدل من نظرة كثير من شعرائنا فى المديح ، بالوطن والمهجر ، كأن الشاعر ما يزال فى حاجة إلى من يدعمه ويسانده ، لا يخلق إلا إذا كساه هؤلاء ريشاً يطير به ليعيش موفور الكرامة مكفى المثونة ، يحقق طموحه المجنح على أيدى الملوك ، فيستوى بذكائه وثقافته مع غيره من الميسورين فى صعيد واحد من عيش رافه ومنزلة مستقرة .

الفصل الثانى

مديح الأمراء والوزراء والوجهاء

١

كانت صلة الشعراء بالوجهاء والأشراف والأمراء والوزراء والقواد أشد من صلتهم بالملوك والخلفاء ، ولم يكن من الميسور دائماً أن يحظوا جميعاً ببقاء الملوك والدخول على الخلفاء ، لذلك تعلقوا بأسباب من دونهم وسيلة إلى الجاه حيناً وإلى المال أحياناً . ونظر الشعراء إلى هؤلاء غالباً ، نظرة الغريق إلى المنقذ ، والفقير إلى الغنى ، والمحتاج إلى المتفضل ، فامتدحوهم كما مدحوا الملوك ، ولعل مرد ذلك إلى أن المديح ضاق بهم عن اختراع لون مختلف لكل طبقة من طبقات الممدوحين ، أو لأنهم كانوا ينظرون إليهم نظرهم إلى الملوك من غير تفريق أو اختلاف . وقد عرضنا فى الصفحات السابقة أغراض الشعراء ومعانيهم حين يمدحون الملوك ، وعرفنا كيف كانوا يصفون هؤلاء الخلفاء ، وسنبين هنا فى إيجاز ما كانوا يقولون فى هؤلاء السادة وجهاء الأمة ، ونبلأ العشيرة ، وقادة الجيوش .

مدح النابغة النعمان بن الجلاح قائد الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ومدح غيره فى الحجاز ، وكان يشيد بعلو المنزلة والسخاء والشجاعة والتدين والعقل والحجى ، وقد كان أول أمره يبعث الشكر ويرسل الشاء لما نال من كرم وندى ، ثم تكسب بذلك فأصبح هذا اللون حرفة له . وهو يصرح فى شعره بأنه لم يمدح عمره سوقة ، وإنما يمدح العظماء والملوك .

ومدح زهير بن أبي سلمى كلَّ من قام بإصلاح ذات البين أو عمل عملاً كريماً ، كما فعل مع هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين عبس وذبيان ودفعوا الديات من مالهما الخاص حقناً للدماء . وكان مدحه لهما ولغيرهما يقتصر على ذكر الصفات البدوية من شجاعة ورأى كريم ، وأصل عريق وتقوى خالصة . وكان زهير مخلصاً في هذا المديح يسعى وراء المعروف والفضل فيشيد بهما ، ولكنه كان يفتتح المديح بالغزل التقليدي ، ثم ينتقل إلى صفات الممدوح فيقول في هرم :

أَغْرُ أَبْيَضُ فَيَّاضٌ يَفْكَكَ عَنْ أَيْدِي الْعُنَا وَعَنْ أَعْنَاقِهَا الرَّبَقَا^(١)
مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا
لَوْ نَالَ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرَمَةٍ أَفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفَّهُ الْأَفْقَا

فهو بين الكرم ، يشرق وجهه بالندى ، كثير العطاء ، خلقت معه السماحة والحدود ، يحتل بمكارمه مكاناً سامياً حتى لتلامس كفه الأفق في رفعته وسمو منزلته وعظم مقامه بين الناس . وهذه صفات العرب ومثلها العليا . ويقول زهير في هرم كذلك أنه حامى الدمار ، حذب على المحتاج ، يحنو عليه حنو المرضعات على القطيم ، ويسعى إلى جميل الأحداث وطيب الذكر . وهو مع الحارث بن عوف يتداركان الأحلاف في الضيق ، فيحوم حولهما أصحاب الحاجات يسألونهما ما يريدون ويعطون ما يطلبون ، ومجالسهما تشفى بأحلامها وآرائها كل جاهل متعنّت :

فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

(١) أغر : في وجهه غرة ، أى أنه بين الكرم - فياض : كثير العطاء - العناية الأسرى - الربق : ج ربة وهو حبل طويل فيه مواضع تجعل فيها رؤوس الحملان ، وهى الأغلال هنا .

وإلى هذا الخير والكرم يجتمع في الممدوحين عند زهير فضل الشجاعة
والبطولة ، يكررها كلما وقف عند مديح فيقول في حصن بن حذيفة :

وَأَبْيَضُ فَيَاضُ يَدَاهُ غِمَامَةٌ عَلَى مَعْتَفِيهِ مَا تَغْبَى نَوَافِلُهُ (١)

ويعيد هنا قوله في هرم وعبارته نفسها ، فيشهد أن ممدوحه نقي من العيب
صاف من الدنس والعيوب ، ويداه تسحان كالغمامة وتمطران بالعطاء ،
وهو كريم بماله يسخو باشا متهللاً إذا ما أقبل إليه طالب معتف :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وهذه صورة ألح عليها المتأخرون ، وكرروها وأعادوها في شعرهم بعده ،
يصفون المتفضل وهو يجود بماله قرير النفس باش الوجه كأنه يتقبل الهدية ،
يأخذ ولا يعطي — كما رأينا في الفصل السابق .

وأما الأعشى فقد مدح كثيراً ، وشكر كل من أهدى إليه أو أغدق عليه
حتى جنح إلى المسألة والتكسب ، فقليل فيه إنه أول من سأل بشعره ، وهو يصف
كذلك الشجاعة والكرم وأصالة النسب وحماية الجار وإغاثة المكروب ، ولا
يخرج في صفات ممدوحه عن المثل العليا عند العرب والصفات الفاضلة المفضلة ،
ويغالى في مديحه حتى يخرج عن حدود التصديق ، فيقول في هوزة الحنفي :

فَتَى لَوْ يُنَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرَ السَّارَى لِأَلْقَى الْمَقَالِدَا

وهذه صورة بارعة في علو المقام وشدة الهيبة ، ينادى الشمس فتطيعه ،
ويخاطب القمر فيلبّيه ، ويضيف الأعشى إلى ذلك أن ممدوحه أحلم من قيس
وأجراً من الأسد ، يستخف بالجموع ويستهن بالشجعان ويعدو وحده على

(١) المعتفون : الذين يطلبون ما عنده — نوافله : عطاؤه كل يوم ، أى أنها دائمة .

الجموع ولو بلغ الرجال ثمانين . ويمتدح سلامة بن فائش أحد أمراء اليمن فيشيد بشجاعته وبأسه ، لأنه يسبي النساء فلا يدفع فيهن مهرًا ، ويسوق النوق في الغارات إلى بيته لتقيم في فئائه وتضاف إلى ملكه ، وهو قوى معطاء يهلك ماله حين يشتد القحط في الشتاء وتهزل المروضات ، فيجير الشعب ويطعم الجائع ويكسو العارى ، فكأنه وحده مصدر جمعيات للإسعاف في عصرنا الحاضر ، يقوم بمفرده مقام الدول والهيئات ، وكذلك كان التعاون والتعاقد في نظر الجاهلية ، وكذلك كانت المثل العليا في نظر الشعراء . وقصيدة الأعشى في المخلّقى مشهورة ، ولو أنه لم يكن في الأمراء أو الوزراء ، لكنه وصفه كذلك ووضعه في مصافهم ورتبتهم .

والخطيئة مدح الزبرقان بن بدر فخصّه بكثير من شعره ، ورأى في آل لؤى سادة نجباء ، يردّون على الجار ما يفقد ، ويعطونه حين يعطب ، وينقذونه من الهلكة والتلف ، ولا يظهرون الامتنان عليه ، فيقول فيهم :

سِرى أَمَامَ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ حَصَى وَالْأَكْرَمِينَ إِذَا مَا يَنْسُبُونَ أَبَا
قَوْمٌ هُمْ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّى بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا
قَوْمٌ يَمِيتُ قَرِيرَ الْعَيْنِ جَارَهُمْ إِذَا لَوَى بِقَوَى أَطْنَابِهِمْ طَنْبَا^(١)

فهم أكثر الناس عددًا وأكرمهم أبا ، في الذروة من السمعة والعزة ، يعيش جارههم قريير العين موفور الكرامة مكفى المثونة ، وهذه أخلاق جاهلية كلّها ؛ وكذلك مدحه في آل شماس ، يتناول القبيلة كلها فيرى أنهم ينعمدون ولا يكدرن نعمتهم بالمنّ والذكر ، شجعان مطاعين ، والخطيئة يمدح على طريق البداوة ، فيرسم القوم والقبيلة وهو يمدح الرئيس والوجيه ؛ ويفصح عن عاطفة العرفان بالجميل ، فيشكر العطاء ويثني على المال واليد ، فقد انتشلوه من فقر وحاجة .

(١) لوى : شد وعقد .

ومدَحَ الفرزدقُ كثيراً من العمال والولاة والوجهاء في العهد الأموي فنظر
إليهم نظرة الشعراء الجاهليين ، فأثنى على الشجاعة والكرم وأصالة النسب . وقال
في بلال إن كفيه كالحيا تسقيان الأرض ، وأن العيس تسعى إليه كما يسعى
البشر ، وأنه كريم :

فكم من عدوٍّ يا بلالُ خَسَّاتَهُ فَأَغْضَتَ لَهُ عَيْنٌ عَلَى مَا يَرِيهَا
رَأَيْتُ بِلَالًا يَشْتَرِي بِتِلَادِهِ مَكَارِمَ أَخْلَاقٍ عَظَامَ رَغِيهَا

فهو يقهر الأعداء ويشترى الحمد بالمكارم والعطايا . وكذلك يمدح الحجاج
وخالد بن عبد الله القسريّ ، يشكرهما على النعمة ويدعوهما إلى إنقاذه مما هو فيه
من ضنك في العيش وحاجة إلى المال .

وجرير ، مدح القواد والأمراء فأثنى على كرمهم وشجاعتهم وتكسب
بمديحه ، واتبع الأساليب العربية القديمة فيه ، فجعل الحجاج أثقب الناس
شهاباً ، وهدّد به الأعداء ، فقال :

إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ رَأَى الْحَجَّاجَ أَثْقَبَهَا شِهَابًا
تَرَى نَصْرَ الْإِمَامِ عَلَيْكَ حَقًّا إِذَا لَبَسُوا بِدِينِهِمُ ارْتِيَابًا

ثم قال إنه ماض على الغمرات ، منع الرُّشَا وأرى الناس سبيل الهدى ، ونكّل
باللصوص وشفى من الفتن :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْهِمْ أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ « الْحَجَّاجِ » ؟
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيفَةً إِذْ لَا يَثْقَنُ بَغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ ؟

وهذه أخلاق عربية ولدت مع هذه الأمة ، وظلت مثلاً أعلى لكل شاعرو

عربيّ يرى في الكرم والسخاء والشجاعة والبطولة وحماية الحار والغيرة على النساء والحفاظ على الأعراض ومنع الرشوة والفساد والتفكير بالاصوص وإشاعة العدل والخير ، ما يمدح له الرجل ويثنى عليه ويشاد بفضلله . ولذلك لم يتعد المديح في أغراضه هذه الصفات خلال العصر الأمويّ كله ، والعرب سادة في الحكم ، وقادة في الجيش ، وحكام في الولايات والمقاطعات ، يمدّون أعناقهم إلى ماضيهم في الإباء والنخوة والحمية ، فيستحون أن يكونوا على غير ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ؛ ويرى المداحون في الإبقاء على هذا الخلق العربي والتحلّي بصفاته مادة للمديح ووسيلة للحمد والثناء .

٢

ولما كان العصر العباسي ، توزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات ، وتفخّم الملك ، فكان في كل ولاية أمير وفي كل إقليم حاكم ، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون ويتقربون إليهم ويتكسبون عندهم ويطلبون قضاء حاجة وبلوغ أرب . فبشار حين مدح وزير المهديّ ، اعترف بأنّه طال انتظاره للثواب ، وحين توجهّ إلى غيره من آل برمك قال إنه حلب بشعره راحتي الممدوح فدرّ كما يدرّ السحاب مع الرعد ، ذلك لأن الأخلاق دبّ إليها الفساد فكثرت القول وراج النفاق ، وأصبح التصديق في محنة ، فلم يكن يؤمن الممدحون بكل ما يقال ، وإنما كانوا يعدّون الكلام بضاعة وتجارة يروّجها من يستطيع ويسيرها من أوغل في البيان وتصرّف في الشعر ، من غير أن تصدر غالباً عن قلب مؤمن بما يقول ونفس مخلصة فيما تنشد . وكان الشعراء يحسّون هذا ، ويعلمون أنهم في حاجة إلى أن يؤكّدوا المديح ، وإلى أن يسرفوا في التعظيم والمبالغة ،

لعلهم ينالون ويعودون بالجائزة والعطية والمنحة فدخل المديح غلوّ عجيب ، واضطر الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء في مدحهم إلى مرتبة الخلفاء والملوك ، وإلى أن يسبغوا عليهم ألقاباً فضفاضة ، حتى اختلط على الناقد التفريق بين ما قيل في الخلفاء وغير الخلفاء ، لتقارب الصور والصيغ ، وأحسّ الشعراء بهذا فحرموا الإطالة في المديح وكرّوها الإسراف فيه فقال شاعرهم :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدّر فيه بعد المستقي عند الورود لما أطال رشاءه

وأصبح المديح حرفة ومهنة ، يبذل صاحبها ماء وجهه في سبيل المال ، وغدا الفحول من الشعراء يكرهون أن يكونوا في سلك الشعراء ينظمهم اسم واحد لكثرة ما ابتذل الشعر واقرن بالضعة وخاصة في القرنين الثالث والرابع ، فنفى أبو فراس الحمداني عن نفسه صفة الشاعر وقال :

نَطَقْتُ بِفَضْلِي وَاَمْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي وَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ

ذلك لأنه أمير يعتزّ بمكانه من العرب ونسبه في القبائل ، فلا يرى أن يسلك مع هؤلاء المدّاحين الذين اتخذوا الشعر آلة للتكسب ، يحملون قصائدهم إلى أبواب الوجهاء والوزراء والأمراء فيؤذن لهم بالوقوف بين أيدي هؤلاء ، ويمشون قصيدهم ثم ينصرفون بصرة صغيرة أو كبيرة ، وهم بها مستبشرون فرحون . والمتنبى تعاضم حتى اشترط أن لا يقف بين يدي ممدوحيه ، فأنشد قاعداً ، ولذلك سقط الشعر ونزل عن صولجانه وعزته وكرامته لهذا المديح التجاري ، بعد أن كان للشاعر المقام الرفيع تنهى القبائل بعضها بعضاً بولادة الشاعر وتفرح لشيدته وتقوم وتقعّد لقوله ، وانقضى ذلك الزمن السحيق حيث يمجّد الشاعر وتفرش الولائم لمقدمه ، وتصنع الأفراح لانتقاله ، ويحلّ من الملوك محلّ الأخ والحدن والصديق

يحكم في أموال الملوك ويقرب كما قلنا . وذلك لأنه كان يخصّ شعره بالملك والخليفة فلا ينحدر ولا يسفل ، ولكنه امتدح منّ دونهم وأصبح يبغى في صيده الأسد والهرّ معاً ، ويعود بغنيمة حيناً أو يرجع صفري اليدين أحياناً ، كما قال المتنبي :

وشرُّ ما قنصته راحتي قنصُ شهب البزاة سواء فيه والرخمُ

فكثر الفقر بين الشعراء ، وأصبح النقاد يقولون : « أدركته حرفة الأدب » ومردّ ذلك كله إلى هذا المديح الذي نعرض بعض صوره العباسية عرضاً سريعاً لتبيين الغاية التي كان يهدف إليها من بلوغ المال وقضاء الحاجة والسعي في لقمة العيش . وقد لازم العصور العباسية كلّها ، وورثنا إلى اليوم نظرة الناس إلى الشاعر المدّاح ، فلم يخلف الشعراء المعاصرون ظن النقاد وقلدوا العباسيين في ذلك ، فأدركتهم حرفة الأدب كذلك ، واويلتاه ، وراحوا يمدحون إذا نالوا ويهجون إذا حرموا ، كأنهم يحملون قيثار المديح بيمنهم ليضطربوا السامع ، فإذا رأوا فيه الصحم والغفلة عن نشيدهم تناولوه بسياط الهجاء ، وكذلك يختارون الدواء لكل علة ، ويجدون القول في كل ميدان .

وقد قال بشار في أمير من آل برمك ، يعده بالمدح ويطلب منه الكرم :

فإن تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي وَإِنْ تَابَ لَمْ يَضْرِبْ عَلَيَّ سِدَادُ
رَكَابِي عَلَى حَرْفِ وَقَلْبِي مَشِيعٌ وَمَالِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادُ

وهذه صراحة في السؤال لم نشهدها في الأمويين والجاهليين قبلهم ، وطلب لم يعرض له الأجداد من شعرائهم بهذه السهولة وهذا الإلحاف ؛ وذلك لأن المديح يورث الغنى ويكسب الترف ويقتل العدم ، فيقول بشار :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغِنَى وَلَمْ أَذْرَأَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّ يُعْدِي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

وهذان البيتان أعجبا النقاد واستثارا مواطن التقريظ في كتبهم ، لأن الشاعر يجد في الجود عدوى تنتقل من الأيدي إلى الأيدي ، فهي عادة تتلف الأموال . والشاعر يصف الممدوح بأنه موضع العطاء ، يصيب القريب والبعيد ماله وسخاؤه ، ويطعم الفقراء ويعيل الضعفاء :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْحُبُّ وَتُغَشَّى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ
لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا الْخَوْفِ وَلَكِنْ يَلِذُّ طَعْمُ الْعَطَاءِ

فالشاعر يهتدى إلى الممدوح كما يهتدى الطير إلى مواقع الحب ، فيغشاه وينزل عنده لينال من سيده نوال لا خوف ، ولكن طمعاً بالبلدة وسعيّاً وراء جمال العطاء ، وكذلك يبين الشاعر أن الممدوحين كانوا يعطون أحياناً عن خوف — كما كنا نقول قبل قليل — وقد تناول بشار في مدحه إلى هذا معاني القدماء في الإعجاب بالشجاعة والسخاء وقتل الأعداء وخوض المعارك ، وأشاد بأن أميره صنعه ذا غنى وجعله ذا ثراء بعد أن كان يغوص في العدم والفقر يستجدي الأكف ويستندى النفوس . وكذلك كان العباسيون من الشعراء يطلبون العطية صراحة ويسألون الهدية إلحافاً ، ويقفون من الأغنياء موقف الصّاغر المستنجد ، فامتألت كتب الأدب ودواوينه بهذا اللون من المديح ، واحتاج الكتاب والمؤلفون إلى أن يخصصوا فصولاً من كتبهم بالهدية والعطاء ، فألف الخالديان كتاباً « في التحف والهدايا » جمعاً فيه ما قال الشعراء وهم يطلبون الهدية ، وما قالوه وهم يشكرون للمهدي ، وذلك ثقیل على نفوسنا في العصر الحاضر ، وقد أصبح للعزة والكرامة عند الكاتب الحر معنى بعيداً عما كان في نفوس كثير من هؤلاء الشعراء المدّاحين . فالسائل في عرفنا يشبه المستعطى ؛ يطلب بمدح ، ويشكر عند

العطية بمدح ، حتى كان في الشعر شبه بالأوراق التي تقدم اليوم في طلب الحاجة واستنجاز العطية وبيان فقر الحال ؛ ولن نضرب لذلك كثيراً من الأمثال وإنما نورد صورة واحدة منها لشاعر عباسي :

فأبو العتاهية يهدي إلى الفضل بن الربيع نعلا ، ويتمنى معها بشع. يرسله إليه أن يشرك خده بالنعل :

نَعْلٌ بَعَثْتُ بِهَا لَتَلْبَسَهَا تَمْشِي بِهَا قَدَمٌ إِلَى الْمَجْدِ
لو كان يَصْلُحُ أَنْ أَشْرَكَهَا خَدِي جَعَلْتُ شراكها خَدِي !

وما نرى كثيراً من الناس يقبلون بأن ينسب إليهم هذا الشعر إلا إذا كانوا في المتصوفة حين يتوجهون إلى الله أو إلى رسوله ، فعند ذاك تتصاغر النفس وتتضاءل ، ولها أن تقف من الخالق ضارعة ذليلة ، ولكنها لن تقف من الوزير أو الأمير الموقف نفسه ، فذلك ما يأباه عزيز أو كريم .
وظل الشعراء يبالغون في ذلك حتى قال أبو نواس في « الخصب » :

أَنْتَ الْخَصْبُ وَهَذِهِ مَصْرُ مُتَدَفِّقًا فَكَلَاكَمَا بَحْرُ
وَيَحْقُّ لِي إِذْ صِرْتُ يَبْنِيكَ أَنْ لَا يَحِلَّ بِسَاحَتِي فَقْرُ

وهكذا ينتجع الشاعر مراع الأجواد يلتمس عندهم النعم والعطاء ، يبدئ ويعيد في ذكر فقره وحاجته ، لعله يبدل عسره إلى يسر ، حتى ليقول في الممدوح إنه أبوه كما قال أبو نواس :

وَكُنْتَ أَبَا سَوْى أَنْ لَمْ تَلِدْنِي رَحِيماً أَوْ أَبَرَّ مِنْ الرَّحِيمِ

ومسلم بن الوليد ، مدح الوجهاء والرؤساء كذلك فأجاد ، وأبان عن قصده المال والعطاء ، وركب الطريقة التقليدية ليبلغ إلى امتداح الشجاعة والبطولة ،

فيقول فيه إنه قائد مغوار في سبيل الدين يكسب الحمد بفعاله العظيمة ، وأنه يستصغر الدنيا إذا عرضت له في همة أو نائل أو موعد :

فَلَأَنْتَ أَمْضَى فِي اللَّقَاءِ وَفِي النَّدَى مِنْ بَاسِلٍ وَرَدٍ وَغَادٍ مَرْعَدٍ
أَعْطَيْتَ حَتَّى مَلَّ سَائِلُكَ الْغَنَى وَعَلَوْتَ حَتَّى مَا يُقَالُ لَكَ أَزْدَدُ !
فهو شجاع وكريم ، بل إنه أسد في الحرب وسحابة في الكرم ، وقد أعطى حتى ملَّ السائل كثرة الغنى لعطائه فما يستزيده ، وبلغ الذروة في الشجاعة والمجد فما وراءهما ذروة . ومن أحسن مدائحه ما قاله في يزيد بن يزيد ، حين مدحه بشجاعته في الحرب وعمله في القتال فقال :

يَفْتَرُّ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مَبْتَسِمًا إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
مُوفٍ عَلَى مُهْجٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهْجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
يَنَالُ بِالرَّفْقِ مَا يَعْثَى الرَّجَالُ بِهِ كَالْوَتِ مُسْتَعْجِلًا يَأْتِي عَلَى مَهَلٍ

يضحك في الحرب لأنه يعرف أنها أقل من همة وأصغر من أن تخيفه ، والفرسان الأبطال من أعدائه يخشونها ويرتعدون منها ، فهو كالأجل يقضى على من يريد أو كالموت يستبطن ضحاياه لكنه يستقيم الكأس الأخيرة . وقد تعودت الطير أن تتبعه في كل مرتحل لأنه يسوق إليها دائماً جثث الأعداء وهاماتهم فيقرها وتنعم بخيراته . ونلاحظ أنه يركب طريقة القدماء في احترام الشجاعة وتقديس البطولة لكنه يستعمل الصور البديعة والمعاني البليغة ، فيخلق في ذلك ويفتح الطريق لأبي تمام والمتنبي في رسم الممدوح ووصف شجاعته ، فقد تسلم قبلهما راية المديح وشرف القيادة ، فجاء بالأجل والموت والدهر ، وجعل الممدوح يتحكم بالمعارك والغزوات كأنه يعرف خواتيمها ونتائجها ، على ثقة من النصر والظفر .

العطية بمدح ، حتى كان في الشعر شبهه بالأوراق التي تقدم اليوم في طلب الحاجة واستنجاز العطية وبيان فقر الحال ؛ ولن نضرب لذلك كثيراً من الأمثال وإنما نورد صورة واحدة منها لشاعر عباسي :

فأبو العتاهية يهدي إلى الفضل بن الربيع نعلا ، ويتمنى معها بشع. يرسله إليه أن يشرك خدّه بالنعل :

نَعْلٌ بَعَثْتُ بِهَا لَتَلْبَسَهَا تَمْشِي بِهَا قَدَمٌ إِلَى الْمَجْدِ
لو كان يَصْلُحُ أَنْ أَشْرَكَهَا خَدِّي جَعَلْتُ شَرَاكَهَا خَدِّي !

وما نرى كثيراً من الناس يقبلون بأن ينسب إليهم هذا الشعر إلا إذا كانوا في المتصوفة حين يتوجهون إلى الله أو إلى رسوله ، فعند ذلك تتصاغر النفس وتتضائل ، ولها أن تقف من الخالق ضارعة ذليلة ، ولكنها لن تقف من الوزير أو الأمير الموقف نفسه ، فذلك ما يأباه عزيز أو كريم .
وظل الشعراء يبالغون في ذلك حتى قال أبو نواس في « الخصيب » :

أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مَصْرُ مُتَدَفِّقًا فَكَلَاكَمَا بَحْرُ
وَيَحْقُّ لِي إِذْ صِرْتُ بَيْنَكُمَا أَنْ لَا يَحِلَّ بِسَاحَتِي فَقْرُ

وهكذا ينتجع الشاعر مراع الأجواد يلتمس عندهم النعم والعطاء ، يبدئ ويعيد في ذكر فقره وحاجته ، لعلّه يبدل عسره إلى يسر ، حتى ليقول في الممدوح إنه أبوه كما قال أبو نواس :

وَكُنْتَ أَبَا سَوَى أَنْ لَمْ تَلِدْنِي رَحِمًا أَوْ أُمًَّ مِنَ الرَّحِيمِ

ومسلم بن الوليد ، مدح الوجهاء والرؤساء كذلك فأجاد ، وأبان عن قصده المال والعطاء ، وركب الطريقة التقليدية ليبلغ إلى امتداح الشجاعة والبطولة ،

فيقول فيه إنه قائد مغوار في سبيل الدين يكسب الحمد بفعاله العظيمة ، وأنه يستصغر الدنيا إذا عرضت له في همة أو نائل أو موعد :

فَلَأَنْتَ أَمْضَى فِي اللَّقَاءِ وَفِي النَّدَى مِنْ بَاسِلٍ وَرَدٍ وَغَادٍ مَرْعَدٍ
أَعْطَيْتَ حَتَّى مَلَّ سَائِلُكَ الْغَنَى وَعَلَوْتَ حَتَّى مَا يُقَالُ لَكَ أَزْدَدُ !
فهو شجاع وكريم ، بل إنه أسد في الحرب وسحابة في الكرم ، وقد أعطى حتى ملَّ السائل كثرة الغنى لعطائه فما يستزيده ، وبلغ الذروة في الشجاعة والمجد فما وراءهما ذروة . ومن أحسن مدائحه ما قاله في يزيد بن يزيد ، حين مدحه بشجاعته في الحرب وعمله في القتال فقال :

يَفْتَرُّ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مَبْتَسِمًا إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
مُوفٍ عَلَى مُهْجٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهْجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
يُنَالُ بِالرَّفْقِ مَا يَعْثَى الرَّجَالُ بِهِ كَالْوَتِ مُسْتَعْجِلًا يَأْتِي عَلَى مَهَلٍ

يضحك في الحرب لأنه يعرف أنها أقل من همة وأصغر من أن تخيفه ، والفرسان الأبطال من أعدائه يخشونها ويرتعدون منها ، فهو كالأجل يقضى على من يريد أو كالموت يستبطن ضحاياه لكنه يستقيم الكأس الأخيرة . وقد تعودت الطير أن تتبعه في كل مرتحل لأنه يسوق إليها دائماً جثث الأعداء وهاماتهم فيقرها وتنعم بخيراته . ونلاحظ أنه يركب طريقة القدماء في احترام الشجاعة وتقديس البطولة لكنه يستعمل الصور البديعة والمعاني البليغة ، فيخلق في ذلك ويفتح الطريق لأبي تمام والمتنبي في رسم الممدوح ووصف شجاعته ، فقد تسلم قبلهما راية المديح وشرف القيادة ، فجاء بالأجل والموت والدهر ، وجعل الممدوح يتحكم بالمعارك والغزوات كأنه يعرف خواتيمها ونتائجها ، على ثقة من النصر والظفر .

وقلده أبو تمام في ذلك فلاً ديوانه بهذا المديح ، وقدّس كذلك البطولة في صور رائعة ، وصف فيها جلائل الأعمال في الحرب والسلام ؛ فقال في ممدوحه إنه فارس الإسلام يحيي نجدة ابن الوليد وشهامة الأبطال المغاوير ، وهو عجيب حين يشرك الناس معه في امتداح من يريد :

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى معى ومتى ما لمتهُ لمتهُ وخذى

فهو ينطق بلسان العالم ، ويتحدث بجنان العرب والمسلمين جميعاً ، يسيرون معه في مديحه ، لأنه صادق لا ينطق عن كذب ، وقد وفق أبو تمام في مدائحه هذه حتى نستطيع أن نصنع من مجموعها ملحمة إسلامية تعدد البطولات وترسم الغزوات ، لو انتظم عقدها في كتاب لكانت أسبق من الشاهنامة في وصف الأجداد والمفاخر ؛ وهو يكثر في ديوانه من تعداد الأعلام التاريخية يضرب بها المثل ، وقد تبعه في ذلك الشعراء بعده ، قال أبو تمام :

إقدام « عمرو » في سماحة « حاتم » في حلم « أحنف » في ذكاء « إياس »^(١)
لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس^(٢)

وهكذا جمع لممدوحه صفات القدماء والمحدثين من أبطال الدنيا العربية ، وجمع من القرآن ما دعم به نظريته في ضرب الأمثال والاستشهاد بالرجال .
وبالحجرتى سار في السبيل نفسه ، فجعل ممدوحيه مشاعل تضيء في الكرم تتوقد فتنطى الكواكب ، وسيوفاً مشهورة على الأعداء ، وشبههم بالربيع يجلبون

(١) هو عمرو بن معد يكرب ؛ وإياس هو ابن معاوية ، كان قاضياً بالبصرة .
(٢) يشير إلى الآية الكريمة في قوله جل وعلا : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كشكاة فيها مصباح » - والمشكاة : كوة غير نافذة - والنبراس : المصباح .

النور والزهرة والعطر على الدنيا ، وأياديهم عنده مذكورة تزيد في لمعانها على الشمس (١) :

يَدُ لَكَ عِنْدِي قَدْ أَبْرَ ضِيَاؤُهَا عَلَى الشَّمْسِ حَتَّى كَادَ يَخْبُو سِرَاجُهَا
وهكذا كانت الأفعال الحميدة مشكورة مذكورة في مغلاة وإسراف ،
ترتفع على النجم وتخفى نور الشمس ، يخصص بها ديوان البحرى فلا يقف لها
إحصاء ولا يوفيهما عرض أو نقد . ومثله ابن الرومى فقد غالى كذلك وأسرف
فقال :

مهما أتى الناس من طول ومن كرم فأنا دخلوا الباب الذى فتحا
يُعْطَى المِزَاحَ وَيُعْطَى الجَدَّ حَقَّهُمَا فَاَلَمُوتُ إِن جَدَّ وَالْمَعْرُوفُ إِن مَرْحَا
وذلك يحيرنا ويجعلنا نتساءل عن مبلغ الصدق عند هؤلاء الشعراء ، وهل
نؤمن بما يقولون ، وعند ذاك نقع فى مشكلة مع التاريخ لا ننتهى فيها إلى معرفة
أكرم الكرماء وأشجع الشجعان ؟ ومن هو الذى فتح الباب وغطى نور الشمس ؟
وارتفع فوق الناس ذكره واشتهر فوق العالم أمره ؟ حتى جاء المتنبي فبلغ بهذه
المغلاة درجة نضل معها فى هذه السبيل للموازنة بين الرجال وأقدارهم ، فقد قال
فى سيف الدولة :

قَتَلْتُ نَفُوسَ الْعِدَى بِالْحَدِيدِ د حَتَّى قَتَلْتُ بِهِنَّ الْحَدِيدَ
كَأَنَّكَ بِالْفَقْرِ تَبْغَى الْغِنَى وَبِالْمَوْتِ فِى الْحَرْبِ تَبْغَى الْخُلُودَ

وأرانا كيف يقتل الشجعان الحديد ويبلغ بذلك سدة الخلود . ورسم ممدوحيه

(١) مدح ابن الرومى أياذى الناس وأناملهم حتى قال فى ابن المدبر :
قبل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتح الأرزاق

كالبلدور والشموس ، وجعل همهم فوق الهمم وبالع حتى جعل البحر يستقي من كرمهم ، وقال في فاتك :

أَبُو الشُّجَاعِ أَبُو الشُّجْعَانِ قَاطِبَةٌ هَوْلٌ نَمَتُهُ مِنَ الْهَيْجَاءِ أَهْوَالُ
تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمَفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالٌ

فهل يذكر المتنبي كم ترك لسيف الدولة بعد مدحه فاتكاً ؟ ! إنه يقول إن فاتكاً تملك الحمد حتى ما لمفتخر حمدٌ ، فلم يجعل أى فرق في هذه المدائح بين الممدوحين ، ولو جردت من عنواناتها لضللنا السبيل إلى معرفة اسم الممدوح وطبقته من الأمراء والملوك والقواد لأنه كان يعتمد في أقواله على المبالغة والتهويل ، فيكبر الصغير ويصغر العظيم ، وهذا دليل على أنه كان يصدر في ذلك عن لسانه لا عن جنانه ، فلم يكن يقوم على عاطفة ، وإنما على عقل يتصرف وفق الغاية والهدف والطموح .

ولم يختلف عنه الشعراء الذين جاءوا بعده أو عاصروه متأثرين بأساليبه ، فقد كان السرى الرفاء وابن نباتة السعدى ومهيار الديلمى يمدحون كما كان يمدح في صور قريبة من صوره يشنون على الشجاعة والكرم ، ويرسمون الوجوه الباشة والأيدى الكريمة ؛ وقد زاد بعضهم فأرسل يمدح في تهنئة أو فرح بزواج وولادة أو شفاء بمرض أو مناسبة عيد أو صيام رمضان ، كأنهم يسجلون الأفراح بمدايح لا تفوتهم منها شاردة أو واردة ؛ فهم الصحفيون الرسميون والمؤرخون في الشعر ، حين يلزمون ممدوحهم ويصدرون عن أحوالهم بلاغات لكل حادث طارئ عظيم أو أسف . ولذلك كانوا يعمدون غالباً إلى الانكسار فيصورونه انتصاراً ، أو يخففون من وقعه وحدة الخزي فيه ، حتى يخيل للناقد المتتبع أن الأعداء كانوا يفرون دائماً أمام هؤلاء الممدوحين ، ويولون الأدبار فيقولوا هم الذل والخوف والخزع والرهبة ، وأما النصر والظفر والهيبة والإشراق والعظمة فكلها لهؤلاء الوزراء والأمراء

والقواد ، لم نسمع ببطولة جندي معين أو شجاعة الرعيّة ، وإنما رأينا العجاج يثور
والسيوف تفعل في الرقاب ولحنا العدو بعد ذلك بعضه يولّي منهزماً وبعضه قد ملأ
الأرض بجثثه وقد حام حولها الطير ، فالمنية في أيدي هؤلاء الممدوحين يتصرفون
بها كيف يريدون ، وينزلون الضربات القاصمة على من يعادون . حتى ليمسأل
بعض المستشرقين إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون الحروب أو أنهم لم يشهدها ،
فكأنهم يصنعون البيانات بالانتصارات يتقدمون بها كتهنئة لعودة هؤلاء العظماء
إلى قصورهم ، يصدقون على شعرائهم من جديد ، فكأنهم يمطرون الشعب كله
بكرمهم ويعمون الدنيا بخيراتهم ؛ ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الجيش يصلح بالرأس
وحده وينتصر برأيه ، فإذا فسد انهار الجيش كله . وقد أدرك أحمد شوقي هذه
الفكرة في القرن العشرين فقال : « ولا الجيش إلاّ ربّه حين ينسب » ولعله
استخلص ذلك من قراءاته لأدب المديح فسار هو نفسه على هذه الخطّة ، ولم
يخرج بذلك عن تشبيهات القدماء ، ووصف قوة الوزراء وبسالة القواد ونظر إلى
هؤلاء من خلال الدين وحماية الإسلام كما نظر العباسيون من قبل ، فأشاد
بمصطفى كمال وشبهه بخالد بن الوليد ، وذكر تقواه وبلاءه وعظيم تقانيه مع قواده :

قَوَادُ مَعْرَكَةٍ وَرَادُ مَهْلِكَةٍ أَوْتَادُ مَمْلَكَةٍ آسَادُ مُحْتَرَبِ
بَلَوْتَهُمْ فَتَحَدَّثَ كَمْ شَدَدَتْ بِهِمْ مِنْ مَضْمَحِلٍّ وَكَمْ عَمَّرَتْ مِنْ خَرَبِ
فبسط فضل هؤلاء الرجال الذين تعاونوا مع مصطفى كمال للوصول بالجيش
إلى شاطئ النصر . وليس عجباً أن يمدح شوقي بطل الترك ، فقد كان يعجب
بالبطولة أنثى كانت ، فمدح القائد نابليون حين وقف على قبره بباريس ، ورسم
عصاميته وبطولته حين اصطاد شاه الروس والنمسا ؛ ومدح سعد زغلول سياسياً
وزعيماً .

وشارك الشاعر إسماعيل صبرى في مديح الوجهاء والوزراء ، فأشاد بصفات

واصف غالى ، وأثنى على مواقفه الغر فى الدفاع عن الشرق والذود عن أمجاد العرب .

وقال حافظ إبراهيم فى سعد زغلول إنه زعيم النيل يفيض النور من طلعتة ،
وخلاص البلاد يكون على يديه .

والشعراء المعاصرون فى الأقطار العربية يمدحون الوزراء والوجهاء والقواد ،
وأرباب المناصب الوزارية العالية ورؤساء « الدوائر » ، ولكنهم يعتمدون على
الصور القديمة وتعابير الأجداد ، وكثيراً ما يحاولون الرثاء لهاته الشخصيات إلى
مديح يعدّون فيه فضائل هؤلاء الرجال ومزاياهم وأعمالهم وكرمهم وبطولتهم ،
ولن نعرض له فقد تناوله كتاب « الرثاء » فى هذه المجموعة ، وتستطيع أن ترجع
إليه لترى كيف كانوا يمدحون وهم يرثون ، فى أساليب تشبه الشعر العباسى ، كما
رسمناه قبل قليل .

الفصل الثالث

مدح العلماء والأدباء

امتدح الشعراء شعرهم بكثير من العجب والتهيه ، فصوّروه دائراً على الأيام
يتنقل على كل لسان ويجلجل في كل مكان ، وظنوا أن شعرهم وحده جدير
بالتقدير تنبثق منه معاني غيرهم من الشعراء ، فهم الصوت والآخرون الصدى كما
قال المتنبي ، ولم يتخلف واحد منهم عن الإدلال بشعره ؛ ولعلمهم بذلك يذكرون
الممدوح بعلو قدرهم على الأقدار ورفعة شعرهم على الأشعار ، فلن يقول فيه قائل
أكثر مما قالوا ولن يبدع فيه أجمل مما أبدعوا ، فالنفس يهتدي إلى النفس كما
قال أبو فراس . ومن الطريف أن نعرض لأقوالهم وأن نوازن بين مدائحهم لأنفسهم ،
ولكن ذلك أدخل في باب « الفخر » ، ولهذا الفن الأدبي كتاب في هذه المجموعة
يتطرق إليه ويتناوله بالعرض والتحليل .

ونحن هنا إنما نستعرض ما قاله الشعراء في غيرهم من الأدباء والكتاب
والشعراء ، لنقف على مبلغ إعجابهم بالعلم والأدب وصناعة الكتابة وفضل
القريض ، على اختلاف العصور ؛ فقد كانوا يجلدون فيمن يمدحون صفوة الأمة
وخلاصة المفكرين فيها ، يشنون على قوة البيان وعدوبة اللسان ويقظة الجنان ،
وروعة القلم وحسن الكتابة .

فقد مدح بشار واصل بن عطاء ^(١) وأكثر فيه ، قبل أن يدين الشاعر
بالرجعة ففضله على غيره من العلماء ، حين سمع خطبة من خطبه فقال :

(١) أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال ، المتوفى سنة ١٨١ ، كان من الأئمة البلغاء
المتكلمين ، وكان يلشغ بالراء لكنه في خطبه يتخلص منها ببراعته - انظر ابن خلكان .

أَبَا حُذَيْفَةَ قَدْ أُوتِيَتْ مَعْجَمَةٌ فِي خُطْبَةٍ بَدَّهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ
وَأَنَّ قَوْلًا يَرُوقُ الْخَالِدِينَ مَعًا لَمَسَكْتَ مَخْرَسَ عَنْ كُلِّ تَحْمِيلِ

وقال فيه كذلك يصف خطابته وطريقة لفظه ومجانبته الرأ وهو ألثغ :

تَسْكُفُوا الْقَوْلَ وَالْأَقْوَامَ قَدْ حَفَلُوا وَحَبَّرُوا خُطْبًا نَاهِيكَ مِنْ خُطْبِ
فَقَامَ مَرْتَجِلًا تَعْلَى بَدَاهَتُهُ كَمَرْجُلِ الْقَيْنِ لَمَّا حَفَّ بِاللَّهَبِ
وَجَانِبَ الرِّاءِ لَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلَ التَّصْفَحِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الطَّلَبِ

فشبه ارتجاله بغليان المرجل واللهب يحفه ، فصوّر اندفاعه وتتابع كلامه
من غير توقف أو تباطؤ ، وذكر تجنبه الرأ في خطبه وأقواله ؛ وذلك يدل على
دقة في التعبير وتنبه إلى واقع الخطيب ، في بيان فصيح .

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الهاشمي لحكمته وبلاغته وتدفقه
في خطبه كذلك .

هِيَهَاتَ أَبْدَى الْيَقِينِ صَفْحَتَهُ وَبَانَ نَبْعُ الْفَخَارِ مِنْ غَرَبِهِ
لَقِمَانِ صَمْتًا وَحِكْمَةً فَإِذَا قَالَ لَقَطْنَا الْيَاقُوتَ مِنْ خُطْبِهِ

فهو في بيانه يشرق باليقين ، وهو في حكمته شبيه بلقمان ، فإذا تحدّث
نثر الياقوت ، فهبّ الناس يلتقطون الدرر . وأبو تمام كغيره من الشعراء يتخذ
القدماء من يونان وغيرهم مثلاً علياً في الفلسفة والحكمة والعقل والمنطق ، يشبه
معاصريه بهؤلاء الفلاسفة ، ويتخذ طريقة التشبيه المادية كذلك فيقرن العقل
بالجواهر .

وأبو تمام يمدح الشاعر الكاتب محمد بن عبد الملك الزيات فقال فيه :

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَابِهِ تَصَابُ مِنْ الْأَمْرِ السَّكَلَى وَالْمَفَاصِلُ^(١)
لُعَابُ الْأَفَاعَى الْقَاتِلَاتِ لِعَابُهُ وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ^(٢)
إِذَا مَا امْتَطَى الْخَمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرَغَتْ عَلَيْهِ شَعَابُ الْفَكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ
أَطَاعَتِهِ أَطْرَافَ الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضُ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ

فصوّر القلم حاداً قاطعاً كالسيف يصيب المقاتل ، بل إنّ لعبه سام
كالأفاعى يخافه الأعداء ويحبه الأصدقاء ، ولأدبه صيت بلغ مشرق الأرض
ومغربها ، يفعل فعل الجيوش في الأعداء ، يقوض الخيام وينزل بالخصوم أقسى
الجزائم .

وهذا وصف بديع لأثر البيان في نفوس السامعين ، جعله الشاعر من القوة
والهول ، بحيث قارنّه بالجيوش الزاحفة والجحافل الجرارة . والبحتري ملحق
هذا الوزير نفسه فقال فيه :

لَتَفْتَنَّتْ فِي الْكِتَابَةِ حَتَّى عَظَّلَ النَّاسَ فَن «عبد الحميد»
فِي نِظَامٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ نِظَامُ فَرِيدٍ
وَبَدِيعٌ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّاحِكُ فِي رَوْقِ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ
مَشْرِقٌ فِي جَوَانِبِ السَّمْعِ مَا يَخْجَلُ لِقَاهُ عَوْدُهُ عَلَى الْمُسْتَعِيدِ

فهو عنده يعطل بلاغة عبد الحميد الكاتب ، وهو فريد في أدبه يحوى من
البديع في كتابته ما يحوى الزهر الضاحك في الربيع ، يشرق في جوانب السمع ما
يؤذيه عود أو ترديد ، وما يمل سماعه المستعيد ؛ فيه حجج عظيمة تخرس الأعداء

(١) الشبابة : حدا السيف .

(٢) الأرى : العسل - الجنى : كل ما يجنى - اشتارته : جنته وقطفته .

وألفاظ كريمة كالجواهر المفردة ، وفيه معان تفوق معانى الخطيئة وليبد بن
ربيعه ، بعيد عن التعقيد قريب من المراد . وهكذا بسط جمال القول فشبهه
بالعذراء فى جماله ، ووصف قوته وأثره فى النفس فجعله كالنغم الحلو تألفه الأذن
كما تألف الألحان المطربة السامية .

وابن الرومى ملاح الكاتب عبيد الله ، فرأى فى قدرته على الكلام عجباً ،
إذ يأتى بوحشيه وأنسه :

وأنت الذى يدعو الكلامَ بقُدْرَةٍ فيأتيه وحشٌ الكلامِ وأنسُه

وقال فيه بقصيدة أخرى ، إنه إذا ما جرى فى حلبة عربية تخلف عن شأويه
قس بن ساعدة الإيادى وأكثم بن صيفى ، فهو ثاقب الفكر يصيب كبد
الصواب فى آرائه . والمتنبى قال فى على بن عامر الأنطاكى أنه يجمع العلم والحلم
والحجا :

وأستَكْبِرُ الأخبارَ قبلَ لقائِهِ فلما التقينا صَغَرَ الخَبَرُ الخُبْرُ
دعانى إليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والنائل النثر

فاستصغر الأخبار فيه حين لقيه ، ووجده أعلى سمتاً وأعظم مقاماً لأنه على
شعر جميل ونوال منشور موفور . وملاح الكاتب ابن العميد ، وكان ضليعاً
فى علوم الفلسفة والنجوم فقال :

يتكسَّبُ القصبُ الضعيفُ بكفِّهِ شَرَفًا على صمِّ الرماحِ ومَفْخَرًا
ويُبينُ فيما مسَّ منه بنانه تيه المدلِّ فلو مشى لتبخترًا
من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليسَ والإسكندرا
وسمعتُ بطليموسَ دارسَ كتبه ممتلكًا متبديًا متحضراً

فوصف ابن العميد بالبلاغة والفصاحة ، وقال إنه يملك القلوب بحسن لفظه فيتصرف فيها كما يريد ، وجعل قلمه أشرف من الرماح يحصل بها الشرف والفخر ، وذلك لأنه لو مسّ أى شىء علمه لظهر فيه الكبر ومشى تيمناً شرفاً بمن مسه . وهو فى حكمته كأرسطو ، وفى بأسه كالإسكندر ، جمع بين العلم والملك والحكمة ، وكان له من فصاحة البدو وظرف الخضر وقوة التفكير ، ما يشبه به بطليموس فى الحكمة والمعرفة .

وذكر المتنبي فى مديحه رسائل ابن العميد فوصف بلاغتها وجزالة ألفاظها ، فجعلها تفوق كل بلاغة وتعي كل فصاحة ، وهى فى بأسها وقوتها كذلك تقتل الأعداء قبل السلاح ، كما قال من قبله من الشعراء . والمتنبى كغيره يتمثل الفضلاء القدماء فى شخص ممدوحه فىرى كأنهم عاشوا فى عقله وبعثوا فى برده من جديد ، فقد كانوا يجلدون المثل الأعلى فى الفكر والحكمة والعقل عند قدماء اليونان — كما قلنا —

وأما الشريف الرضى فقد مدح صاحب إسماعيل بن عباد ، فرأى قلمه الماضى أجرى من العوالى ، وأجود منها ، فهو يحوك على القرطاس برداً منمنا :

لَكَ الْقَلَمُ الْمَاضِى الَّذِى لَوْ قَرَنْتَهُ يَجْرَى الْعَوَالِى كَانَ أَجْرَى وَأَجْوَدَا
إِذَا انْسَلَّ مِنْ عَقْلِ الْبَنَانِ حَسْبَتُهُ يَحُوكُ عَلَى الْقُرْطَاسِ بَرْدًا مَعْمَدًا^(١)

وبذلك قرن قلمه بالرمح ، وشبه كتابته بالثياب الموشاة . وأما التهامى فقد مدح الوزير المغربى الداهية المشهور ، والكاتب الفحل فرأى فى كتابته صفو الكلام وبين هوله وقوته :

تَقَلَّمَ أَقْلَامُكَ الْحَادِثَا تَقَسَّرَا وَتَهَمَّ نَابَ الثُّوبِ

(١) العقل : السجن — المعمد : الموشى على هيئة العمدان .

وجعل حكمته موروثه من آبائه الفرس ، كساها الوزير لفظ قريش ،
فجمع المعنى المحكم والأسلوب الرصين ، وكان في بيانه سيده الكتاب .
وقد تطوّر مديح العلماء والكتاب على العصور ، فأصبح الشعراء
يعقدون أنواع المعرفة التي يجيدها الممدوح ، وبذلك أسفوا إلى درجة النظامين .
فقال القادري يمدح السيوطي :

ومعرفة الإعراب أرفع مرتقى فطوبى لمن يرقى إليه ويصعدُ
وعلم المعاني والبيان كلاهما مراق إلى علم البديع ومصعد

* * *

وزاد هذا اللون من المديح في أواخر القرن التاسع عشر وصدّر القرن
العشرين حتى ابتدل ابتداءً ، فأصبح الشاعر يمدح رسالة تصله أو رقعة تبلغه
أو كتاباً يتصفحها ، وامتألت الدواوين بما سموه « تقريرظ الكتب » حتى لكان
المؤلفين أنفسهم يطلبون ذلك من الشاعر ، كما يطلب آل المولود شيئاً من الشعر
في مديحه يفتتحون به حياته ، أو كما يطلب المتزوجون قصيدة لزفافهم ، فكان
المداحون يعمدون إلى تلبية هذه الرغبات والأمنيات ! ويضيفون إليها ما سموه
بتأريخ هذا الأحداث ، فاستعملوا حروف الحمل بحيث يكون مجموع الحروف
الأخيرة معادلاً لتأريخ هذه المناسبة . وليس هذا من الشعر في شيء إنما هو نظم
وتقفية ، يطلبه الطالبون فيلبى النظامون من غير شعور أو عاطفة أو إحساس بما
يقولون ، فهو مصطنع متكلف مزيف ، شبيه بهذا الإنشاء الذي يكتبه
المأجورون في نميقة ترفع إلى الحاكم ، أو طلب يرسل إلى الحاكم ، أو رسالة
تسطر باسم رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ؛ لا تعبر عن نفس كاتبها في شيء ،
وليست تدخل في موضوع بحثنا هنا ، لأنها ليست من الأدب ، فهو في عرفنا
يجب أن يصور نفسية الأديب وحاله حين كتب .

وقد تطرق بعض شعرائنا في القرن العشرين إلى مديح العلماء والكتاب والشعراء ، وخص صفحات من ديوانه بشيء من ذلك ؛ نورد أمثلة منها لبيان صورة المديح لهذا العصر . ومنهم إسماعيل صبرى ، فقد أكثر من هذا اللون ، وأسهب فيه ، وعزيز علينا أن نحصى ما قال وأن نعرضه جميعه ، فقد مدح كتاب السفر لأحمد زكى ، وكتب إلى صاحبة مجلة يثنى على همتها في صحيفتها ، وأرسل إلى شوقي يهنئه ، وإلى محمود خاطر يشكره على مختصر القاموس في اللغة . وإلى حافظ عن كتابه ليالى سطيح ، وقرظ دواوين الشعراء أحمد نسيم والبارودى وفؤاد الخطيب وشوقى وحافظ ومطران وأحمد الزين ، وقال فى ديوان أحمد شوقى :

مرحباً بالقصيد يتلوه للشعر — أميرٌ يُصغى له أمراء

وما نجله فى أقواله هذه أو مقطعاته جمالاً أو بياناً أو سحرّاً ، وإنما نرى أنه شعر ينخفض عن مستوى شعره .

وحافظ إبراهيم امتدح كذلك ، ووصف الإمام محمد عبده بأنه محاً فى الدين كل ضلالة ، وحلّ عقد المشكلات فى الإفتاء ، وأن الناس التفؤوا حوله ، كأنه ابن الخطاب أو على بن أبى طالب . ومدح الشاعر محمود سامى البارودى بأنه سلب بحار الأرض درّ كنوزها ، وصير منشور الكواكب فى الدجى نظماً منضداً بأسلاك معانيه ، وأبياته إذا ما تلاها الناس خروا لها سجداً . وامتدح شوقى فجعله بلبل الشعر الصداح ، ثم قال فى شوقى وصبرى إنهما أعادا عهد الرشيد بآيات شعرهما وملاً المشرق حكمة وبياناً . وامتدح طه حسين وأحمد لطفى السيد ومصطفى صادق الرافعى وتوفيق البكرى والمويلحى وأحمد حافظ عوض وأصحاب المقتطف . وقال فى مطران إن النثر مشى خاضعاً إليه وألقى الشعر إليه الزمام ، وعقد له اللواء على الشعراء وبايعه بالإمامة فيهم . ولم يقف مدحه على الأدباء من العرب وإنما تناول رجال الغرب فمدح شكسبير لآثاره الراقية مثل روميو وجولييت ومكبث

وشيلوك وهملت ، وقال إنه مولع بتصوير الطباع ، وهنا أمة التاميز به ، كما هنا الفرنسييس بفيكتور هوغو .

ومدح أحمد شوق كثيراً من العلماء والأدباء من عرب وفرنجة ، وأشاد كذلك بفضائل أدبهم وكتبهم ، وتحدث عن نهضة العلم في الأزهر . وكان يقول كزميله حافظ مديحاً لكل مناسبة تعرض ، فقد أخذ العرب عن الغربيين عادة الحفلات التكريمية يرسلون فيها الشعر والنثر ، لبلوغ سن معينة أو نجاح في مشروع أو افتتاح لمصرف أو إقامة بنيان جديد أو تأسيس جامعة جديدة . لذلك أرسل مديحه في واصف غالى وذكر ما له من أياد في كتبه الفرنسية ومقالاته في التعريف بالعرب ، وقال في أدبه إنه ذو شرك تحاذر الغيد منه ، وأنه في نظامه كفلك الليل إذا تحلى بالزهر . وقال في أحمد لطفي السيد مادحاً ترجمته « لكتاب الأخلاق » عن أرسطاليس ، فذكر الفيلسوف اليوناني وحكمته وأثنى على المترجم لجمعه بين لغة الإغريق ولغة تميم ، فقال :

أرج الرِّياض نَقَلْتَهُ وَنَسَخْتُهُ نَسَخَ النَّسِيمِ
وَسَرَيْتَ مِنْ شَعْبِ الْأُمِّ سَبَّهَ إِلَى وَادِي الصَّرِيمِ (١)
فَتَجَارَتِ اللُّغَتَانِ لِلَّ غَايَاتِ فِي الْحَسْبِ الصِّمِيمِ
لُغَةً مِنَ الْإِغْرِيقِ قَيَّ مَةً وَأُخْرَى مِنْ تَمِيمِ

وهذا من النثر المقفى لا يلحق بأذيال الشعر ولا يلزم به ، ولكنه جديد على الأدب العربي في مثل هذا الشكل وهذا الأسلوب . فخاض فيه الشعراء على أنه زى جديد وفن يتسابق فيه الشعراء والنظامون ، وينشرونه في الصحف ويذيعونه على المنابر ، فتهتز الأكف حين إلقائه ثم تحمله الريح مع الغبار الذي ثار والعجاج الذي هب .

(١) الألب : من جبال اليونان - الصريم : واد من أودية العرب .

وامتدح شوقي صديقه المؤرخ إسماعيل رأفت نثراً وشعراً ، ولكنه ذهب إلى حكمة الدنيا ، وتقلب العالم وفناء الأموال والأشخاص ، معتبراً بالتاريخ ، فتشبهه بأقوال قس بن ساعدة : «من عاش مات ومن مات فات» . ولشوقي قصائد في شكسبير وفي هول كين ، وفي مدح المؤتمرات الجغرافية . وهو في ذلك كله يقدر العلم والعلماء ، ويشيد بالمعلم ، فيرى أن الأنبياء معلمون ، وأن الله خير معلم علم بالقلم القرون الأولى ؛ وأشاد بالأخلاق الرفيعة من وراء ذلك كله ؛ وانتقل من العلم إلى صناعة التعليم ومن الأدب إلى صناعة التأليف ومن الحكمة إلى مترجى الحكمة ، فمدح الرجال الذين يقومون بهذه الصناعات وأشاد بأعمالهم وما تخلف أفلامهم من بيان وإرشاد وتقى وصلاح .

* * *

ونخلال السنين الأخيرة قام في العالم العربي شعور بإحياء مفاخر الأجداد والاحتفال بأعياد مولدهم ووفاتهم ، تقليداً للغرب ، وذكرى مرور ألف عام على هذه الأحداث . وكان في الظن أن تكون رثاء خالصاً وأسفاً عميقاً لفقدانهم ، ولكن الرثاء انقلب إلى تكريم ومدح فدخل في هذا الباب من أقوالهم ما نعهده في مدح العلماء والكتاب ، وأصبح لزماً أن نعرض لهذه الحفلات بكلمة موجزة نبين فيها هذا اللون من القول . وقد أقام العرب حفلات للمتنبي والمعري وابن سينا وغيرهم ، وأرسلوا في هؤلاء من الشعر والنثر ما يحسن أن يكون صفحة جديدة لهذا الباب . فامتدح الشعراء في أبي العلاء عمق التفكير وسمو التعبير ، وعيشه المتواضع بعيداً عن لذة المرأة ، فقال فيه محمد مهدي الجواهري وشفيق جبري وبدوى الجبل ومحمد البزم . وقد رسم محمد البزم ثورته على الملوك ، وبقطة العروبة في ديوانه فقال :

مَلَأَتْ خِيَاشِيمَ العُرُوبَةِ نَعْرَةً تنوخيّة يُزهي بها من تخامرّة
وسعرت في أحشائها الوقد للذي يردّ لها عرباءها لا تناظرّة

وترى أنهم ملحوه كأنه حتى يسمع نشيدهم وقصيدهم ، فبرهنوا على معرفة
وذكاء ، وقالوا ما لم يقله القدماء ، فأنشأوا في شعرهم ما يقوله الناثرون في نقد
الأديب وتعريف أدبه ، وأعادوا على المعاصرين عهد عكاظ في التنافس على
غرض واحد ؛ فافتخروا بالتراث الذي يملكون من فكر قوى وأسلوب عظيم ،
واستطاعوا أن يجدوا في العصامية عند المتنبي وطموحه مجالات للقول ، اشترك
فيها شعراء العراق ومصر والشام ، وكتابهم ، والمستشرقون كذلك ؛ فعشنا
كأننا في الغرب نقيم الحفل للتكريم والدراسة ، ونصنع ما صنعوا ، فنطبع آثارهم
ونحبي كتبهم ونوزعها في المثقفين لبيان الفضائل والمزايا ، فكانت ثروة جديدة
تجمع في كتاب واحد ما قيل في المديح حول شاعر واحد أو كاتب واحد ،
تخرجه الجامعات العلمية أو جامعات عربية أو جمعيات أدبية ، وهذا جديد في باب
لم يألفه القدماء ، أشرنا إليه إشارة عابرة لأننا رأينا أنه ألصق بباب المديح من
غيره ، يحسن التوسع فيه لو كان في الصفحات موضع لقول مفصل أو دراسة
متوسعة .

الفصل الرابع

المديح الديني

١ - الله جل جلاله

خلق الله الوجود فأحسن خلقه ، وأنعم على البشر فأجزل نعمه ، لذلك قامت الأديان كلها بشكره ومديحه وبيان أياديه ونعمه ؛ فأكثرت الكتب المقدسة من ذكره وبيان معجزاته في خلقه ، وفي القرآن الكريم كثير من الآيات في مديحه والا عتراف بجبروته وقوته وخيراته وفضله على المخلوقات جميعاً من حيوان ونبات وحماة . ولذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فرأوا في الطبيعة سرّاً جماله وفي تكوين الدنيا جمال عظمتة . وبهذا كثر المديح وتنوع فكان حيناً مديحاً سطحياً ، وحيناً مديحاً عميقاً ، وأصبح في كثير من الأحيان مديحاً صوفياً فاتخذ لوناً آخر من ألوان الأدب لا نعرض له في هذا الكتاب إلاّ لماماً .

وإنما نعرض قبل كل شيء ما كان من مديح ديني خالص ، فنبسط صوراً ونماذج قليلة تلخص هذه الألوان الكثيرة التي كانت منذ فجر الدنيا العربية تصلى للإله وتدعو له ، فلن نستطيع إلى عرضها كلها ، ولكننا نقتصر على شيء منها . فقد قال حسان بن ثابت :

وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي	بذلك ما عَمَّرْتُ في الناس أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا	سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَعْجَدُ
لَكَ الْخَلْقُ وَالنِّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كَاهٍ	فَإِيَّاكَ نَسْتَعِيذُ وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ

فأنت ترى أنه اتخذ الألفاظ التي يرددوها المؤمنون في صلواتهم وفي عبادتهم فاستعمل المديح دعاءً لله خالقه يشهد بفضلله ما عاش ، وليس سواه من خالق . وأبوالعتاهية أكثر في مديحه للإله جلّ وعلا ، فكان الزاهد المتعبد الموحده :

أَيَا مَجْبَأَ كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَـهَ هـ أَمْ كَيْفَ يَجْعِدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

فهو يرى عظمة الإله في كل شيء ، مما يلمح وينظر ، وهو يحمله ويعبده كما فعل حسان سواء بسواء فقال :

لَكَ الْحَمْدُ يَا ذَا الْعَرْشِ يَا خَيْرَ مَعْبُودٍ وَيَا خَيْرَ مَسْئُولٍ وَيَا خَيْرَ مَحْمُودٍ
شَهِدْنَا لَكَ اللَّهُمَّ أَنْ لَسْتُ مُحَدَّثًا وَلَكِنَّكَ الْمَوْلَى وَلَسْتُ بِمَجْحُودٍ
وَأَنْتَ مَعْرُوفٌ وَلَسْتُ بِمَوْصُوفٍ وَأَنْتَ مَوْجُودٌ وَلَسْتُ بِمَحْدُودٍ
ويضيف في قوله كما نرى الفكرة التي بلغت إلى أبناء عصره من نظرة جديدة إلى الإله ، وفلسفة جديدة في الوجود ، وتعايير طرأت على هذا الضرب من المديح حتى كانت نواة للتصوف فيما بعد .

وقد كان كثير من الشعراء يشاركون في هذا المديح الديني ، يكبرون الجمال والكمال في خلق الله ، كما فعل أبو نواس حين وصف النبات ، وكما فعل ابن الرومي وأبو فراس . وقد تطور هذا المديح حتى أصبح أقرب إلى النسب حين ينشد الشعراء المتصوفة في حب الإله ، ويرمزون إليه بالحبيب ، ويغنون في عشقه والتقرب منه ، فيجدون فيه نوراً وأصلاً وسبباً ، ويدخلون الفلسفة والعقل والتصور في شعرهم ، فيخرج ذلك من حدود المديح الخالص إلى فن التصوف ، وله كما قلنا كتاب خاص يبحث فيه ، تجده فيه الهيام بحب الله والاستغاثات والأدعية وغيرها مما تجده في كتب المتصوفة ودواوينهم ، كابن

الفارض وابن عربي والحلاج وفي شطحات هؤلاء العلماء .
وامتدح الشعراء الأنبياء كلهم فقالوا في آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب
ويوسف وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، مما تجده في كتب
الأدب ومختارات الشعر كالثعالبي وغيره . ولكن هذا المديح كان يعرض لبعض
الشعراء في بعض الأحيان لم يتتابع على العصور ، ولم يتطور كما تطور الشعر
في مديح المصطفى خاتم الأنبياء ، وفي الثناء على رسالته التي جاء بها والاعتزاز
بفضله وبيان أياديه على الإسلام والأشادة بمحامده ، فقد أدمجوا مدح الرسالة
الإسلامية بمديح الرسول ، ولم يفصلوا بينهما في كثير من الأحيان ، لذلك
جعلناهما في باب واحد ، نعرض فيه ما قيل من شعر ونبسط نماذج منه على
اختلاف الأزمان .

٢ - المدح النبوي

كان العرب يعيشون في أطراف الأرض على نظام عجيب وأسلوب غريب ،
لا تجمعهم دولة ، ولا يلمهم سلطان ولا ينظمهم قانون واحد ، يدينون طوراً
بالنصرانية وحيناً بالوثنية أو اليهودية ، مشعبة آراؤهم ، مختلفة مذاهبهم ، يخضعون
لكسرى أو لقيصر أو لما تحتكما من نفوذ ، ويحيون على عشائر وقبائل
تتناحر وتتصادم ، يختلف إليها البؤس والتشريد والجور ، فكأنها تنتظر
زعياً يجمع شملها وقائداً يفيد من شجاعتها ، وإماماً يوحد بين آرائها . فلما
ظهر محمد - صلى الله عليه وسلم - في قریش ودعا إلى وحدة العرب واتحادهم ،
واجتماعهم تحت دين واحد وراية واحدة ، لينقذهم من فوضى تشل حياتهم
وحروب تستنفد قواهم واستعمار يستلهم ويسترقهم ، هزت دعوته القبائل

ورؤساءها ، وبلغت الممالك المجاورة وملوكها ، فوفقت بين مصدقة ومكذبة ، حتى إذا بلغها ما كان عليه هذا الرسول من تعلق بالحق والوفاء والقناعة والتواضع ، ومن مقدرة في البلاغة والفصاحة والبيان والسياسة ، ومن مكانة في الشجاعة وقيادة الجيوش ، هالها أمره وأذهلها خطره ، فانصرف بعضهم إليه وانصرف بعضهم عنه ، ووقف له شعراء يتصدون للهجوم عليه ، كما وقف شعراء في الدفاع عنه وامتداحه . وقد كان هذا المديح أول الأمر يقتصر على امتداح خصاله وشماله ورسالته ، وهو حي ؛ فلما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشادة بالدين والإسلام . ونحن إنما نعد هذا من المديح لأنه يتوجه بكلامه إلى النبي كأنه موجود حتى يناديه ويناجيه فيسمعه ويليه ، ولأنه يحقق مبادئ هذا الفن ، من تمدح لشجاعته واستحسان لأخلاقه ومزايه وإعجاب بصباحة وجهه ، فقد قال الصفدي في شرح لامية العجم يصف المديح : « وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصبابة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبلدر والصبح » وقد رأينا كيف مدح الشعراء ملوكهم وأمراءهم وحكامهم ، فوقفوا عند هذه الصفات . ولذلك لن يضيرنا أن هذه القصائد قيلت بعد وفاته ، فهي في مديحه . وأما ما كان من أبياتها في الأسف لفقدته والبكاء لذهابه فقد طرحناه لأنه في الرثاء ، وله كتاب مخصوص به .

جاءنا أن النابغة الجعدي أنشأ قصيدة طويلة مدح فيها رسول الله فقال :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَتَلَّوْا كِتَابًا كَالْحَجَرَةِ نِيرًا
أُقِيمُ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفَعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْخَوْفَةَ أَحْذَرًا

فالرسول جاء بالهدى ودين الحق يتلو القرآن نيرا كالحجرة في السماء ، يأمر بالتقوى والفعل الجميل ، وقد آمن النابغة وقام بالدين خوف النار الخوفة .

وجاءنا كذلك أن الأعشى مدح الرسول بقصيدته الدالية ، يريد بها وجه

النبي ، لكن قريشاً صرفته عن لقائه في رواية يعرفها المتأدبون ، ليس هنا محلّ بسطها ، فانصرف عنه وبقيت القصيدة في مديحه يقول فيها :

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجَدَا
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَعْبُ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعُهُ غَدَا

وهكذا امتدح الندي والجود على عادة الجاهليين ، وبسط ما للنبي من ذكر عاطر سار في الأغوار والنجد ، فطاف البلاد وعمّ الأقطار ، وله صدقات لا تنقطع ، وعطاء لا يفتر ، يبذل الخير لكل قاصد وطالب . وهذا مديح أشبه بأن يوجه إلى الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل وأمراء الولايات ، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق . ولعلّ ذلك لأن الأعشى بعيد عن فهم الدين ومبادئه ، أو لعله لم يألف هذا اللون من المديح الديني ولم يسمع به من قبل ، فلما حاول أن يقول نطق به على عادة الجاهليين كما رأينا في الفصول السابقة ، لا فرق عنده بين زعيم ديني ورئيس قبيلة أو سيد في قومه وعشيرته .

وأما كعب بن زهير فقد مدحه بقصيدة سارت على الزمان ، وقلدها الشعراء على العصور . بدأها بالنسيب الخالص ثم وصف ناقته ، وانتقل بعدها إلى الرسول يمدح ما يحمل إلى المسامحين من قرآن جليل . ويعتذر بعد ذلك ويطلب العفو من النبي لما بدر منه ، فقال :

أُنْدِيتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلَاهُ هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ

فرسول الله كريم متسامح يقبل العفو والمعدرة ، وهو الذي حمل إلى المسلمين هدية كبيرة هي القرآن وفيه المواعظ البالغة وما يحتاج إليه المسلمون في أمورهم ، فبين فضل الرسول بالإشارة إلى عظيم رسالته ، وبين كريم يده بالدلالة على

واسع هديته ، ثم انتقل إلى وصف النبي وهيبته مجلسه ومقامه :

لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذَا أَكَلَهُ وقيل : إنك منسوبٌ ومَسْئُولٌ^(١)
 مِنْ ضَيْغَمٍ مِنْ ضَرَاءِ الْأَسَدِ مَحْدَرُهُ بيطن « عثر » غيلٌ دونه غيلٌ^(٢)

فالرسول عنده أهيب من الأسد الحادر المفترس ، يبعث الروح والفرع في النفس ، قد أقام في الغياض فما يلقاه قلب إلا جزع وهلع ، وهكذا جعله في الشجاعة والقوة والبأس حتى ما يوازن به إلا هذا الأسد العظيم في الروعة والهيبته . وقد صدق هذا الوصف قول الإمام علي بن أبي طالب في نعته ، إن جلساءه كانوا يبعدون منه كأن على رؤوسهم الطير لا يتنازعون عنده الحديث ولا يسفون في المقال لأنهم كانوا يبعدون منه ويضطربون بمحضره ، فقوله هو القول الفصل وما هو بالهزل . وكعب بن زهير بعد أن وصف الرسول قال :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولٌ

فهو سيف مطبوع من أشرف سيوف الهند وأفضلها مضاء ، لأنه سيف الله أرسله إلى العباد باسمه ، ليفصل بينهم ويحكم في أمرهم ، وسله على المشركين وسلطه عليهم ليقطع به دابر الفوضى والشرك . وهذا منتهى المديح العربي القديم ، إذ بسط الكرم والفضل والعفو والتسامح والبأس والشجاعة في شعر متين ملاء بالصور الضخمة والتعابير المتينة ، فجعله سيداً مطاعاً ورئيساً مهيباً ، وإماماً يحمل القرآن إلى البشر ، ويتحلى بخير السمائل والصفات من تسامح وندى ورحابة صدر .

وحسان بن ثابت كان شاعر النبي حقاً ، امتدحه لصفاته الفاضلة ورسم الدين الإسلامي رسماً موفقاً فقال :

(١) منسوب : أي مسئول عن نسبك .

(٢) محدره : مكانه - عثر : موضع - الغيل : العيضة .

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله : قد أرسلت عبداً يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم : لا نقوم ولا نشاء

وفي هذا بسط حسان ما كان من خير على يد النبي ، ودعا إلى تصديقه
والإيمان به فرسمه نوراً يشع على العباد ورسولاً هادياً إلى الرشاد ، يهدي العقول
الضالة والأحلام الشاردة ، من يتبعه يرشد :

لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبِ رَكابُ هَدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ ويتلو كتاب الله في كل مَسْجِدِ
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقتها في اليوم أوفى ضحى الغدِ

فهو قد حل بركة على المدينة وأهلها ، وفي ركابه الهدى والسعود ، يتلو
كتاب الله في كل مسجد ، وقوله لا بد سائر إلى القلوب تؤمن به وتصدق رسالته
وتسير بهديه . وهذا كله مديح ديني يصف الرسالة النبوية وعظمة القرآن ،
ويشيد بالإيمان ، ولكنه حين يمتدح شخص النبي يختار الصورة المثالية للرجل
في خلقه وفي خلقه ، فيراه أحسن الناس وأجملهم :

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرِ قَطَّ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءِ
خَلَقْتَ مَبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ كَمَا تَشَاءِ

وهذا أعجاب ليس له حدّ بجمال الرسول في خلقه ، فهو أجمل الناس طراً
لا يستثنى منهم أحداً ، وهو أكملهم ، لا يصيبه عيب ولا يبلغه نقد ، فقد خلا من
هذا وهذا ، فكان الكمال المجسم ، والخلق المصنفي . وبذلك يبلغ شاعرنا ذروة

المديح عند العرب القدماء ، يضيف إليهم مديحه الديني الخالص حين يقول
في تلخيص الديانة الإسلامية :

أَغْرُ عَلَيْهِ للنُبوَّة خاتَمٌ مِنْ الله مشهودٌ يُلوح ويُشْهَدُ
وَضَمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه إِذا قال في الخمس المؤذن : أشْهَدُ
وَشَقَّ له من اسمه ليجلَّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ
نبيُّ أنا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض تعبدُ
فأَمْسَى سراجاً مستنيراً وهادياً يلوح كما لاح الصقيل المهْدُ
وَأَنْذَرْنَا ناراً وبشر جنَّة وعلمنا الإسلام فالله نحمدُ

فالنبيّ كريم في أفعاله مشرق في خصاله ، عليه طابع النبوة واضح ظاهر ،
وقد كرّمه الله فقرن اسمه إليه ، حين تتلى الشهادة في الصلوات الخمس لكل
يوم . وجعله منقذاً للعرب جاءهم بعد يأس من الرسل ، وفترة من الضلال
بالأوثان ، فأنازلهم سبيل الحق وهداهم إلى الخير ، وبشر بالجنة وأنذر بالنار ،
فبسط الإسلام وعلم الناس كيف يحملون آلاء الله ونعمه . وما ينبي حسان يبسط
فضل النبي على البرية ويده على العرب ، يعدّ مكارمه وأخلاقه ، ويشبهه
بالهلال في نوره ورحمته للعباد . ويرسم ما له من فضل في النصر والظفر في غزوات
العرب ومعاركهم وانتصاراتهم على الأعداء . وهكذا جمع حسان في ديوانه سيرة
الرسول ومفاخره ومحامده وأياديه في السلم والحرب ، وفي الدين والدنيا معاً .

وظل الشعراء يفعلون كما فعل حسان على مدى العصور ، سواء فيهم من
تدين أو من لم يتدين ، وقد أنشد أبو العلاء المعري في القرن الخامس في الدين
الإسلامي وفي الرسول ما يشبه قول حسان على بعد الزمان بينهما فقال :

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الْأُمُورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ الْعَوَالِي فِي الْقَنَا كَالسَّوْأِفِلِ

حَدَاكُمْ عَلَى تَعْظِيمٍ مِنْ خَلْقِ الضَّحَى وشهب الدجى من طالعَاتِ وَأَقْلِ
وَالزَّمَكُمَ مَا لَيْسَ يَعْجِزُ حَمْلُهُ أَخَا الضَّعْفِ مِنْ فَرَضٍ لَهُ وَنَوَافِلِ
وَحَثَّ عَلَى تَطْهِيرِ جَسْمٍ وَمَلْبَسِ وَعَاقِبٍ فِي قَذْفِ النِّسَاءِ الْغَوَافِلِ
وَحَرَّمَ خَمْرًا خَلَّتْ أَلْبَابُ شَرِّهَا مِنْ الطَّيِّشِ أَلْبَابِ النِّعَامِ الْجَوَافِلِ

فمدح الرسول برسالته ، وعدّد الفروض والنوافل ، ولخص أركان الدين من طهارة وعبادة ، ونحرّم للخمر وذهب مع الرشاد والخير . وسار على غراره كثير من الشعراء حتى كان القرن السابع للهجرة ، فوضع محمد بن سعيد البوصيرى عدداً من القصائد فى مدح الرسول وأطال فى بعضها حتى بلغ فى الحمزية ما ينيف على أربع مائة بيت ، بسط فيها حياة النبى وفصائله ومزاياه ، ومعجزاته ، ورسم مولده فى ليلة غراء ، وضعته فيها آمنة بنت وهب ، فنالت من فخار ما لم تناله النساء ، وشرفت به بنات حواء ، وأتت قومها بأفضل مخلوق ، ثم بسط النسب الشريف ، وذكر خوارق الولادة ، ووصف تداعى الإيوان وانطفاء النار ، وبسط المعجزة الكبرى فى القرآن من رقيق اللفظ ورائق المعنى ، كأنها الحب والنوى أعجب الزرّاع وأدهش القراء ، حتى حسبوا أنه سحر ، وقد قال فى شمائل النبى :

سَيِّدُ ضَحْكِهِ التَّبَسُّمُ وَالْمَشَى يُهِوِّى الْهَوَيْنِ وَنَوْمُهُ الْإِغْفَاءُ
مَاسِوَى خُلُقِهِ النَّسِيمُ وَلَاغْيَـرُ مَحْيَاةِ الرَّوْضَةِ الْغَنَاءُ

فهو مبتلّد فى مشيته ، جميل فى تبسمه ، خلقه كالنسيم رقة ومحياه كالروضة الغناء اثلاقاً ، وسع العالمين حلماً وعلماً ، فهو بحر خضمّ زاهر بالمجد والخلق الرفيع ، ولذلك خضعت لهيئته الأقوام وسارت إلى رايته الأمم . والقصيدة كلها

على هذا النمط من المديح الديني تصوّر الإيمان والخشوع والتقوى والورع والتشفع والرجاء ، والتعلق بأهداب الدين والفرح بالرسالة ، وهي مهداة إلى سيد الرسالة كباقة من أفكار دينية تتقدم يوم الحشر لتشفع لصاحبها يوم تجزع النفوس وتهلع القلوب .

وفي قصيدة أخرى ، ذكر سبب نظمها ^(١) في ملاح النبي فقال : إنه قد أصيب بفالج أقعده ، فدعا إلى الله وتشفع ، فلما كان في نومه رأى النبي فسح وجهه بيده المباركة ، وألقى عليه بردة ، فانتبه فإذا هو قد شفى من مرضه ، فنظمها ومماها لذلك بالبردة ، تيمناً وتبركا . وسارت قصتها فأنشدها الناس كذلك تيمناً وتبركا . والقصيدة تنيف على ثمانين بيتاً ، فيها صلوات على النبي ووقوف الأنبياء ببابه يلتمسون الرضا ويتشفعون ، وكلهم يعرف حده :

وكلّهم من رسول الله ملتمسٌ غرّفاً من البحر أو رشفاً من الدّيم
وواقفون لديه عند حدّهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكيم

ثم يصفه كرجل وبشر فيقول :

فبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خيرُ خلق الله كلّهم
أكرمٌ بخلق نبيّ زانه خلقٌ بالحسن مشتمل بالبشر مُتّسم
كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في هم
كأنّه وهو فرد في جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم

وقد جمع البوصيري في هذه الأبيات كلّ ما قال القدماء في الممدوحين ، فصوّر جمال خلقه وكرم أخلاقه في حسن وبشر ، وشبهه بالزهر والبدر والبحر والدهر ، وصوّر هيئته كأنه في عسكر عرمرم وفي حشم كثير . وتحلّث بعد

(١) رواية ابن شاعر الكتيبي في تاريخه .

ذلك عن معجزاته في إيوان كسرى ونار فارس وبحيرة ساوة ، وتساقط الشهب وسجود الأشجار ، وسير الغمام وصنع الحمام ، مما تتناقله كتب السيرة . وتكلم عن القرآن ووصف الإسراء ، وعدد الغزوات ، وختم بالرجاء والدعاء والتماس الشفاعة .

وقصيدة « البردة » هذه ، حفظتها الأجيال الإسلامية في أقطارها ، ورتلتها في مناسباتها الدينية ، وتولتها المطابع في الشرق والغرب ، وشرحها الشارحون منذ القرن الثامن حتى اليوم شروحاً عدة يعيننا حصرها هنا ، وشطروها وخمسوها وسبعوها . وقد عارضوها مع ذلك على مدى العصور فقلدوا معانيها الجامعة وأبياتها الرائعة ، فكانت سبباً لميلاد خزانة في مديح الرسول عامرة بالكتب والشروح والبديعيات ، ومن أشهرها بديعية ابن حجة الحموي وقصائد ابن نباتة المصري . وولدت قصص المولد ، تنثر هذه المعاني الدينية وتستعمل صورها ومفرداتها وتتضمن بعض أبياتها .

وهذه القصائد الدينية لا تخرج في مجملها عما لحص الثعالبي في كتابه « سحر البلاغة وسر البراعة » ^(١) من أقوال البلغاء في ذكر النبي حتى عصره قال : « سليل أكرم نبعة ، وقريع أشرف بقة ، جاء بأمتة من الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم الظل بعد الحرور ، محمد نبى الله وصفوته ، وخيرته من بريته ، مؤكد دعوته بالتأييد ، ومفرد شريعته بالتأييد . . . » إلى آخر ما أورد هذا الكاتب من صفات تعاورها الشعراء والبلغاء .

ولم يخل القرن الماضي من شعراء امتدحوا النبي ، فقد أنشأ محمود سامي البارودي قصيدة دينية سماها : « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » جعل فيها سيرة النبي من مولده إلى انتقاله ، وسار فيها نظماً كما سار ابن هشام في كتابه عن حياة الرسول نثراً . وهي متينة التراكيب تذكركنا بشاعر الرسول حسان في

(١) طبعة أحمد عبيد بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ - انظر ص ١١ .

معانيها ؛ والقصيدة ميمية كذلك تتحدث عن الغار والعنكبوت والحمامتين في خيال واسع ، ثم تقصّ علينا غزواته وحروبه والأعلام الذين اشتركوا فيها ، يختتمها بالرجاء والشفاعة والخشوع والخضوع فيقول :

لم يترك الدهر لى ما أستعينُ به على التجمل إلا ساعدى وفى
هذا يجتر مدحى فى الرسول وذا يتلو على الناس ما أزعجه من كلّى

فقد وضع لسانه وساعده رهنًا لمديح النبيّ يتلو على الناس محامده ومزاياه وخصاله وشمائله ، ثم يقول :

وإنما هى آيات رجوتُ بها نيل الثنى يوم تحيا بذّة الرّم-
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت أحسنُ بمنتثر فيها ومُنْتَظَم-

فيرجو كشف غمته ودفع بليته ، لعله يعلو بمديحه على هام السماء ويصبح السعد من خدمه فلا يخلد بعد اليوم ولا يضام بعد هذا القول . ومدحه بقصيدة أخرى (جيمية) افتتحها بالنسيب ، وبسط فيها الرجاء وتشفع بالدعاء بعد الستين من عمره ، فهو يرى العروج إلى مديحه وسيلة من وسائل الشفاء والصحة والنجاح وبلوغ الأجداد ، فهدايته وحدها رفعت البشر وسمت بهم ، وجعلت أمته فريدة بين الأمم تعتر به وبرسالته وبعثه فى العرب :

هو النبيّ الذى لولا هدايته لكان أعلم من فى الأرض كالهَمَج

وأنشأ أحمد شوقي فى مديح النبيّ قصائد عدة منها « الحمزية النبوية » افتتحها بذكر ما كان لمولده فى تبسم الزمان واستنارة الكائنات ، وبيت النبوة وخلائق الرسول وعلمه وكلامه ، فامتدح بالبشر الذى يلوح على محياه ، وذكر الخوارق

كما ذكرها الشعراء قبله في نار كسرى وزلزلة العروش والتيجان فقال فيه :

يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعُلَا مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبَرَاءُ
زَانَتِكَ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلٌ يُغَرِّى بَهَنٌ وَيُولَعُ الْكِرْمَاءُ

فهو يرسم أخلاقه الكريمة العظيمة في رضاه وغضبه ، في سكوته وفي كلامه في بيته وأسرته ، ثم ينتقل إلى القرآن فيصفه ويصف الرسول :

يَا أَيُّهَا الْأُمِّيَّ حَسْبَكَ رَتَبَةٌ فِي الْعِلْمِ أَنْ دَانَتْ بِكَ الْعُلَمَاءُ
الذِّكْرَ آيَةُ رَبِّكَ الْكُبْرَى الَّتِي فِيهَا لِبَاغِي الْمَعْجَزَاتِ غِنَاءُ

ويتطرق شوقي بعد ذلك إلى فلسفة القدماء والمحدثين وآراءهم في الاجتماع والسياسة والفصاحة والبلاغة وفضل النبي عليها جميعاً وتفردده بينها بالسمو والكمال :

الِإِشْتِرَاكِ يَكُونُ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلَاوُ
دَاوَيْتَ مُمْتَدًّا وَدَاوُوا ظَفِرَةً وَأَخَفْتُ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءَ
أَنْصَفْتُ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى فَالْكَلِّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
فَلَوَانَ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مَلَّةً مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءُ

وشاعرنا وحده بين المادحين أدخل روح زماننا وملايساته ومذاهبه وآراءه في تصوير النبي ، فكانت قصيدته درساً في الموازنة بين المذاهب والشرائع والقصائد والآراء ، كأنه يتحدث بلسان العصر على أربعة عشر قرناً لم تضاف كلها شيئاً جديداً إلى ما أورد هذا اليتيم الأمي ، ولم تزد عليه فيما حمل من معجزة ومن فلسفة ، وختم شوق قصيدته بالدعاء كذلك كما ختم غيره .

ونظم في ذكرى المولد قصيدة أخرى امتدح فيها الدين والنبي ونظر إليه فيها نظرة قومية ، وأشار إلى بلاغته وجهاده فقال :

وَكَانَ بَيَانُهُ لِلْهَدَى سُبُلًا وَكَانَتْ خَيْلُهُ لِلْحَقِّ غَابًا
وَعَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ حَتَّى أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابًا

فهو يرى في النبيّ إماماً في الفصاحة ومثالا للخلق الرفيع وقائداً عظيماً وزعيماً كريماً ، قاد المسلمين إلى مرابع الظفر والنصر وامتلاك المجد والخلود والأخلاق .
ويتلفت شوقاً في قصيدة أخرى فيرى العالم الإسلامي مضطرباً قلقاً فيقول :

فقل لرسول الله يا خير مُرسل أبشك ما تدرى من الحسراتِ
شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سُبَاتِ

فشوفاً شاعر الدين في العصر الحديث ينظر إلى المسلمين نظرة المسلم القلق وقد هاله اضطرابهم وحيرتهم ، فرأى أنهم يحتاجون إلى زعيم ويفتقرون إلى كتاب ، وأنهم سيضطرون إلى اتباع مذهب سياسي : فأشار على قومه والأمة الإسلامية أن تعود إلى زعيمها القديم ، منذ أربعة عشر قرناً تتبع مناهجه وترسم خطاه ، وتؤمن بدينه ففي ذلك الفلاح وفي اقتفائه النجاح ، وليس لداء الفوضى الذي انتشر فيهم وغلب عليهم إلا هذا الدواء الذي التمسّه في خلق النبيّ وفي تعاليمه السامية المحيية .

* * *

والشعراء في الأقطار العربية ما يزالون يرسلون المدائح في النبيّ ، ويصورون بطولته وكرمه وجمال خلقه وعظمة أخلاقه ، وسمو رسالته ، وهم كذلك يحثون قومهم على اتباع نهجه واقتفاء أثره ، ويتألمون لما هم عليه من فوضى واضطراب وتفكك ، يرون أنها شبيهة بحال العرب قبل الإسلام فلا يجدون لها خلاصاً إلا على يد زعيم يحمل رسالة الإنسانية والعدالة ، ويحطم العبودية في كل صقع ، ويقوم للشرك والظلم في كل مكان ، فيعيد للعرب مجدهم وعزهم ، ويذل أعداءهم ،

ويخلصهم مما هم فيه ، فترجع إليهم انتفاضتهم القديمة ، وتذكركم الأمم من جديد بالقوة والبأس والخلود، وتخشى بأسهم وتجعلهم في مصاف الشعوب الحرة المحترمة .

ذلك ما يردده شعراء العرب اليوم ، يمدحون النبيّ لكل ذكرى ويستعيدون تاريخه وسيرته لكل مناسبة ، إذا ادلهم الخطب وكشرت النوائب ؛ ولهذا نجد في كل ديوان شعراً في النبيّ ، يشيد باسمه كما أشاد القدماء منذ حسان ، وهو كثير لا سبيل لإحصائه أو عرضه ، في الشام والعراق ومصر ، فقد أنشد أنور العطار ، وعمر أبو ريشة ، وأحمد مظهر العظمة ، وعدنان مردم قصائد كثيرة نشرتها الصحف وحملتها الدواوين إلى القراء ، فيها مديح الأجداد ووصف المحامد والدعاء والرجاء بكشف الكرب ودفع اللثام عن الشام ، ورسم المعارك والغزوات ، وتصوير اليتيم وجهاده في جزيرة العرب لحو الشرك ونشر التوحيد ، حتى انتصر الوحيّ الحديد ، وفازت العقلية الجديدة ، وقامت للعرب دولة جديدة في مشارق الأرض ومغاربها .

وفي مصر أنشد كثير من الشعراء في مديح النبيّ ، وقد نظم الشاعر المصري محمد عبد الغنى حسن ديواناً كاملاً في مديحه سمّاه من « وحي النبوة ^(١) » لا نعرف له مثيلاً في الأدب العربي ، فقد جعله تمجيداً للرسول في صفحات شعرية تبين عن صفاته وسيرته وأجل ما في حياته ومعجزاته ، كأنه يعدّها نواة للمحمة كبيرة في الإسلام ! ولعلّ غيره فعل مثله ولم يبلغنا ما نظمته في النبيّ .

ولن نوفي حق هؤلاء الشعراء في عرض شعرهم ونقده وبيان ماله من ميزات جديدة في مديح النبيّ ، لأن ذلك يطول ، وإنما نكتفي بالإلماع إليه ، والإشارة إلى كثرته ووفوره ؛ تحدثنا عنه لنبرهن أن هذا اللون من الأدب لم ينقطع في

الشعر العربي منذ حسان (١) وأن الشعراء اتجهوا إل الدين وإلى النبيّ كلما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالهم المصائب والكوارث ، فعمادوا إلى الماضي يفخرون ويعتزون ويستحثون المهمل للاقتباس منه ، والسير على هديه ، لعلّ الأعجاد تعود إلى أمتنا من جديده ، وتلفنا الرفعة من كل جانب ، وتحيط بنا المفاخر في المستقبل .

(١) الذين يريدون أن يعرفوا ما كان للمديح النبوي من ثروة ضخمة كبيرة يحسن أن يعودوا إلى كتاب « المجموعة النبهانية في المدائح النبوية » لإسماعيل النبهاني .

الفصل الخامس

المديح الديني السياسي

مديح آل البيت

١

إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول لصفاته ونبوته ، فقد امتدحوا آلَه وبيته لمقامه ورفعته بين البيوت . وقد دفعهم الألم والحرمان في كثير من الأحيان إلى الالتفاف حول البيت ، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة — إذا صحّ التعبير — ، واتخذوا من المديح الديني لآل البيت وسيلة سياسية للمطالبة بالخلافة والحكم ، والدعوة إلى الثأر والانتقام والتنديد بالظلم كما يصورونه حين يرون أنه انصب على هذه الأسرة وهذا البيت ؛ حتى لقد بالغ بعضهم في هذا المديح فاستغله استغلالاً واسعاً وقلبه إلى رثاء وتشيع للبيت وآله ، وأصبح هذا التعلق سبيلاً إلى التفرق ، وغداً هذا الحب سبيلاً إلى البغض لأن السياسة دخلته ، وما دخلت السياسة شيئاً إلا غيرت من معالمه وأفسدت من أهدافه . لذلك أنشد الشعراء في المفاضلة بين الصحابة والأصفياء ، وقالوا في حق الخلافة ! وألحوا على صور الفواجع التي ألمت بأهل البيت كقتل الحسين وإحياء ذكره في ماتم تستعاد فيها ذكرى المآسي ! فجرى الشعر في الدواوين كما جرت الدماء في تلك المنازعات من قبل ، وظل كذلك حتى اليوم تهتز له الأسماع في كثير من الأصقاع وينشد في المحافل ، حتى لكأننا في الأيام الأولى للإسلام ، نشهد

الفاجعة من جديده ، ونحياها في أسي وتظلم وبغض وحقه ، يحمل الأبناء
فكرة الانتقام من أحفاد لا يملكون إلا الأسف لما وقع بين أجدادهم في
القديم

والشعراء الذين دخلوا في هذا اللون من المديح أصاب كثيراً منهم عنت
وإكراه ومصائب ، ولكنهم لم يأبهوا لذلك كله وحسبوا أنه نضال وجهاد يقاتلون
بالسنتهم ويلقون ما يلقي المجاهد في سبيل عقيدته ومبادئه .

وقد مدح الكمي ، وسار شعره في حبّ الرسول وأهله ، وكأنه لا يخاف
أن يثير بني أمية حين ينتقدهم ويتهمهم بأنهم نهبوا الخلافة واستلبوها ، فهي
من حق الهاشميين ، وسميت قصائده بالهاشميات ، مدح فيها أخلاق بني هاشم ،
ووصف منهم كرم الشمايل وجميل الخصال ، وقال إنهم الحماة الكفاة والولاة
الأساة ، وهم الأسد في الوغى ، وهم على ذلك ساسة العرب لا يشبهون في ذلك
ساسة الأمويين من الخلفاء :

لَا كَعَبْدَ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدٍ أَوْ سُلَيْمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامٍ

وتناول الأمويين بالهجاء ورأى أنهم لا يصلحون للخلافة ولا الحكم ، فهم
يعاملون الرعية معاملة السائمة يستغلونها ويستخدمونها في أغراضهم . والكمي
ذو نفس طويل في هاشمياته عاطفي في مدحه لأهل البيت ، يجده في قرابتهم من
الرسول تقرباً من الخير والنعمى :

بني هاشم رهط النبي فَإِنِّي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضِي مَرَاراً وَأَغْضَبُ

والرسول خير حي وميت من بني آدم غيبته المقابر ، وخير جنين وخير
مسترضع :

خير مُسْتَرْضِعٍ وخير فطيم وجنين أقرّ في الأرحام
 وغلاماً وناشئاً ثم كهلاً خير كهل وناشئ وغلام
 لو فدى الحى ميتاً قلت نفسى وبنيّ الفدا لتلك العظام

وهو يجده فيه مجد العرب وسناءهم ، وأنه لأمين الله في الناس كلهم ، ثم ينتقل بعد مدحه إلى بكاء القتلى من أهل البيت والتفجع عليهم والتوجع لمصائبهم ، وأخصهم الحسين ، وينصرف إلى تصوير حكم الأمويين وسوءه وفساده ، ينعي عليهم الضغائن والأحقاد وينتهى إلى القول :

بأيّ كتاب أمّ بآية سنة ترى حبه عاراً علىّ وتحسب
 فما لي إلا آل أحمد شيعة ومالي إلا مشعب الحق مشعب

فهو لا يرى العار في حب آل البيت وإنما يراه في البغض ، فيتشيع ويعلن ذلك ويبراه الحق المبين والطريق الواضحة .

والفرزدق على مديحه لخلفاء الأمويين ، نقلت إلينا كتب الأدب أنه مدح آل البيت كذلك وتشيع ، فنسبت إليه قصيدة في الإمام زين العابدين ، هذا مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
 هذا ابن خيار عباد الله كلهم هذا التقى النقي الظاهر العلم
 إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
 ينمى إلى ذروة العز التي قصرت عن نيلها عرب الإسلام والعجم

وبعد أن يصف موطن الإمام ومراح صباه من أماكن مقدسة ، يصف

حياءه ومهابته وجمال طلعتة وإشراق غرته وعظيم كرمه وواسع إحسانه إلى الناس ،
ويتنقل إلى آل البيت لينشده فيهم :

مِنْ مَعْشَرِ حَبِيبٍ دِينٍ وَبَغْضِهِمْ كَفَرُوا وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَمَعْتَصِمٌ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقَى كَانُوا أُمَّتَهُمْ أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرَ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ هُمْ
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادُ بَعْدَ غَايَتِهِمْ وَلَا يَدَانِيهِمْ قَوْمٌ وَإِنْ كَرَّمُوا
هَمُّ الْغِيُوثِ إِذَا مَا أَرْزَمَتْ أَرْزَمَتْ وَالْأَسْدُ أَسْدُ الشَّرِّ وَالْبَاسُ مُحْتَدِمٌ

فجعل حبهم من الإيمان وبغضهم من الكفر ، وفي القرب منهم نجاة والبعد
عنهم هلاك ، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض قاطبة ، لا يلحق بهم جواد
ولا يدانيهم قوم ، فهم السحاب في النجدة والكرم ، وهم الأسود في اليأس والشدة ،
وليس بعهده هذا مطمع لمادح في آل البيت .

وعاش دعبل في عهد الرشيد فمدح آل البيت ، وعجب كذلك لقتل
الأحرار من بني هاشم ، وعاب على العباسيين أن يعاملوا العرب كما عاملوا الروم
والخزر ، فقال :

قَتَلْتُمْ وَأَسْرْتُمْ وَتَحْرِيقُكُمْ وَمَنْهَبَةٌ فَعَلَّ الْغَزَاةَ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالْخَزَرِ
أَرَى أُمِّيَّةَ مَعْذُورِينَ إِنْ قَتَلُوا وَلَا أَرَى لِبَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ عُذْرٍ

فإن كان من عذر لبني أمية فليس ثمة عذر لبني العباس . ورسم دعبل
مقتل الحسين كما وصف غيره ، وعدّد فواجع أهل البيت ، وصوّر مدارسهم
قله خلت من التلاوة ، ومنازل وحيهم أصبحت مقفرة العرصات :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مَقْفَرِ الْعَرَصَاتِ
وهو يعلّم هذه المنازل ويذكر هذه القبور فيعرض لمرايع العزّ ومواطن الألم

والفحيجة ، ويبكى ويستبكي ، ثم يعود إلى أهل البيت ليظهر حبه وغرامه بهم :

مَلَأَمَكْ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ أَحْبَّاءَ مَا عَاشُوا وَأَهْلَ ثِقَاتِي
بِنَفْسِي أَتَمُّ مِنْ كَهُولِ وَفْتِيَةٍ لَفَكَ عِنَاةٌ أَوْ لَحْلَ دِيَاتِ

ويمدحهم كما مَدَحَ الجاهليون رجالاتهم فيرى فيهم فك العناة وحمل
الديات ، وأظهر حبهم في عهد يُعاقب فيه المحبّ ويكافأ الشانيء .

٢

ولما كان القرن الرابع الهجري واستولى الحمانيون على الجزيرة وحلب ،
جعلوا من هذه الربوع منابر لمدح أهل البيت ومناثر للمطالبة بالثأر ، فهم
شيعة كلهم ، وشعراؤهم حشدوا قواهم لمدح الشيعة والتفجع لماضيهم ولما حلّ بهم ،
فيهم كشاجم والسرى الرفاء ، والأواء الدمشقي ، وأبو فراس الحمداني ، والصنوبري ،
والخالديان ، ودواوينهم تغص بهذا الممدح وتمتليء بهجاء العباسيين ، تردّ على
شعرائهم وتناقض قصائدهم ، ثم تنشئ في مدح الأئمة والاستشفاع بهم عند
الله ، فيقول شاعرهم أبو فراس الحمداني (١) :

شافعي أحمد النبيّ ومولا يَ عَلِيٍّ وَالْبَنْتِ وَالسَّبْطَانِ
وعليّ وباقر العلم والصا دق ثم الأمين ذو التبيان
وعليّ محمد بن عليّ وعليّ والعسكري الداني
والإمام المهديّ في يوم لا ين فع إلا غفران ذي الغفران

(١) انظر في معرفة الأئمة وبيان أسمائهم وأنسابهم ، ديوان أبي فراس طبعة بيروت ١٩٤٤ .

وهذا الشعر شبيه بالنظم التاريخي ، لما حشر فيه صاحبه من أسماء وأعلام
كأنه أرادته للشيعة صلاة روحية ، يردّون ما قال ، ويترحمون على الأئمة ،
ويتفجعون لما أصاب القتلى . وهو في ديوانه يوازن بين آل البيت وبين العباسيين
ويورد فضائل الأولين وما يأخذه على الآخرين :

لَا يَغْضَبُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ إِنْ غَضِبُوا وَلَا يُضَيِّعُونَ حُكْمَ اللَّهِ إِنْ حَكَمُوا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبداً وفي بيوتكم الأوتار والنغم

فيصف تقوى آل البيت وهو العباسيين ، ويأخذ عليهم أنهم لم يكفوا الشتم
عن بنات رسول الله ، ولم يعترفوا بالبيعة ولم ينحرفوا عن الغدر ، فقله كان على
أولى الخلفاء بها بعد النبي . وهذا كله شعر سياسي في لغة عصرنا اليوم ، لكنه
قبل "عصبي" لعصره ، يشبه عصبية الجاهلية وحيثها في القربى والدم ووشائج
الرحم ، وهو كذلك يقول :

أهوى الذي يهوى النبي وآله أبداً وأشنا كل من يشناه

والصنوبري من أطول الشعراء الحمدانيين نفساً في مدح أهل البيت ، فهو
يخصهم بقصائد طويلة جداً ، يزور فيها قبور يثرب يحيي جدث الرسول ووصيه ،
ويمدحه مدحاً عظيماً :

ومن مضى خاتم الرسـل والسراج المنيرا
ومن به بشر الركـب من قریش بحيرا

ثم ينتقل إلى حمزة والعباس ، ويذكر دور «الغري» وقبور العراق ، ويفيض
في مقتل الحسين ، ويصف كربلاء والفواجع والمآسي ؛ ولن نسهب في عرض
شعره فهو شبيه بالحمدانيين في هذا . وإنما نتقل إلى الشريف الرضي ، لنرى

عنده ملاح آل البيت ، في شعر فيه فخر واعتزاز وعصبية ، وذكر للقبور والأماكن كالطف والغرى وطوس وسامرا وبغداد وغيرها ، يقول :

قُبُورٌ تَنْظِفُ الْعِبْرَاتُ فِيهَا كَمَا نَظَفَ الصَّبِيرُ عَلَى الرَّوَابِي^(١)
فَلَوْ بَجَلَ السَّحَابُ عَلَى ثَرَاهَا لَذَابَتْ فَوْقَهَا قِطْعُ السَّرَابِ

وفيها امتداد للنبي وفاطمة والسبطين والوصي كما فعل الصنوبري وأبو فراس سواء بسواء . وهو يتوجع للفواجع ويندم بنى أمية ، ويذكر الثأر والانتقام ويندد بالقاتلين فقد خفروا ذمة النبي وأسأوا إلى آل بيته :

بَاعَتْ بِصَائِرِ دِينِهَا بِضَالِهَا وَشَرَتْ مَعَاطِبَ غِيَّهَا بِرِشَادِهَا
جَعَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ خَصْمَائِهَا فَلَبِئْسَ مَا ذَخَرَتْ لِيَوْمِ مَعَادِهَا

وهكذا حوّل الشعراء مديح آل البيت إلى قصائده باكية حزينة تشبه الرثاء والتفجع وتبحث على الانتقام والثأر ، فأعادوا سيرة الجاهلية في العصبية والقبلية ، وامتدحوا فضائل القتلى .

ومهيار الديلمي لا يقل عن زملائه في هذا الميلان ، في إثارة العصبية ، حين مديح آل البيت ، فقد غلب على شعره الرثاء والبكاء كذلك ، وتوجع ، وجعل القضية دينية صرفة :

هَذِي قَضَايَا رَسُولَ اللَّهِ مَهْمَةٌ غَدْرًا وَشَمْلُ رَسُولِ اللَّهِ مُنْصَدَعٌ

وقد تجمع من هذه القصائد في آل البيت كتب كثيرة ومجاميع عديدة ، عمل القدماء على جمعها وتبويبها كما فعل اليماني ، حين ألف كتابه الكبير « نسمة السحر » ، في ذكر من تشيع وشعر . وعمل المحدثون على دراسة هذا الأدب وبسط

(١) الصبير : السحاب المتكاثف .

تاريخه ، وعرض ما وقع للشيعه ، فسالت في كثير من أصقاع العرب كلبنان
والعراق كتب متعددة تثير الخطب وتكمل الطريق . ومن المعاصرين شعراء
يسرون في مديح آل البيت سيرة سياسية يمدحون من يتولى منهم الحكم أو يمسك
بزمام الملك ، ويخلصون لهم إخلاصاً كبيراً يشبه المطالبة بحكم هذه السلالة
وعودتها إلى دفة الخلافة والإمارة . وقد عقد الكتاب في هذا الأدب فصولاً كثيرة
تنظر إليه من ناحية السياسة ، ونظر إليه هنا من ناحية الدين والسياسة جميعاً ،
لا نفرق بينهما ، يعتمد أحدهما على الآخر في حججه ودلائله ، حتى ما يمكن
أن نفصل بينهما .

الفصل السادس

المديح السياسى

١

بسطنا فى الأبواب السابقة ما كان من مدح للملوك والخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والوجهاء ، وعرضنا لمديح العلماء والكتاب ، وألمنا بطرف من مديح النبىؐ ، ونظرنا من خلال الشعر إلى النواحي الأدبية فى المديح من وصف للشجاعة والكرم وأصالة النسب وقوة العارضة وشدة الذكاء ، وبسطة العلم والجاه ، ووقفنا عند الحدود الفنية فى ذلك ، لم نعرض لما وراءها من قصد سياسى إلاّ حين كتبنا فى مديح آل البيت ، فرأينا فيه أهلاً فاعلاً عصبية وقبلية ودولية — كما نقول اليوم — إلى جانب العاطفة الدينية التى اعتمد عليها هذا اللون من المديح كأساس للمطالبة وعنوان للحجة .

ونحن حين ننظر فى الأبواب الأخرى من الناحية السياسية الصرفة نجد فيها كما وجدنا فى مديح آل البيت دوافع خفية وظاهرة إلى عمل سياسى وغرض دولى . فالنابغة حين امتدح مليكه النعمان بن المنذر انتصر للدولة دون مملكة ومملكة دون مملكة ؛ لأن الغساسنة كانوا أعداء المناذرة ، ومديح فريق خصم يعد فى عرف السياسيين اليوم خصومة للفريق الآخر ، وهو انحياز لمعسكر دون معسكر ، كما تقول الصحافة المعاصرة . وكذلك مديح قبيلة دون قبيلة حين تشتد الخصومة بينهما وتستعر الحروب ، وتقدم الأيام شواهد على هذه الخزازات

والأحقاد والضغائن ، وتأييد القبيلة تشجيع للثورة على أخصامهم وبعث للحرب والانتقام . فإذا عرفنا أن أيام العرب تجاوز الألف عدداً — كما قال بعض المؤرخين — أدركنا أىّ شعر في المديح السياسى سفح الشعراء وأسألو فى قوافى الدواوين ، يردده أهل القبيلة فى السلم تهيئة للحرب وفخراً بالنصر وبعثاً للهمم الحاملة ، فالزعيم فى القبيلة كالمملك فى الدولة لأنه سيد قومه وحاكمهم ، وإليه المعاد فى أمور السياسة والحكم ، وهو وحده صاحب الكلمة النافذة . ومصلحته هى مصلحة القبيلة ، ولا شأن للفرد إذا ذكرت الأسرة والعشيرة والدولة . وحدود القبيلة المؤقتة هى حدود الوطن ، ترسمها رماحهم وتكسبها نصالهم وتبنيها مواضعهم ، والدفاع عنها عن الوطن .

ولما كان الإسلام ، وقف حسان يمدح النبىؐ فى دينه الجديد وسياسته الجديدة لإدارة الدولة ، ووقف خصومه يقاتلون سياسياً فى شعرهم ويردون على شعراء حزب النبىؐ — إذا صحت التسمية — لذلك كان مديحه من جانب سياسى منصباً على حقه فى زعامة الأمة وإنقاذها من الفوضى والكفر ، والسير بها إلى التنظيم والإيمان ، فهو يشيد بالفتوح الإسلامية ويمتدح الدولة الجديدة القائمة لانتصاراتها فى فتح مكة وفى بدر ، أو يرد على خصومه من الشعراء السياسيين الذين انتصروا لحزبهم كذلك . وقد وقعت بعد انتقال الرسول قضية المبايعه فلدعا الشعراء لمرشحهم فى الحكم كما نقول اليوم ، وامتدح كل منهم صاحبه ، وراح يدلى بحججه فى حقه بالخلافة .

وقد حبس الخطيئة فأرسل يستعطف عمر بن الخطاب قائلاً :

أنتَ الإمام الذى مِن بَعْدِ صَاحِبِهِ ألقى إليك مقاليد النُّهى البَشْرِ
لم يؤثروك بها إذ قَدَّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثرُ

فهو يرى أن البشر ألقت إليه مقاليد النهى بعد أبى بكر ، وآثروه بها ، لأنه

أنفع المسلمين وأجلدهم وأحقهم ، فخاض بشعر بسيط في خضم النزاع السياسي والحزبية المستعرة آنذاك ، وكأنه فضّ الخلاف وقضى فيه بقوله هذا . وظلت هذه الخصومة في الحجاز حتى انتقلت إلى العراق والشام بعد مقتل عثمان ، فقال كعب بن جعيل يصف الحال :

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّهُ مُلْكَ الْعِرَاقِ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لَهُ كَارُهُونَا
وَكُلُّ لَصَاحِبِهِ مُبْغِضٌ يَرَى كُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ دِينَا
وَقَالُوا : عَلَى إِمَامٍ لَنَا رَضِينَا ابْنَ هَنْدَرَضِينَا !

وظهر بعد هذا شعراء من الخوارج كرهوا من عليّ قبول التحكيم بينه وبين معاوية ، فدخلوا من باب السياسة الواسع وألحوا على هذا المعنى ، ولكنهم لم يمدحوا فئة بعينها ، وإنما جاهلوا في إبداء آرائهم السياسية ، وأقلقوا أمن الدولة الأموية كما أقلقها الشيعة سواء بسواء . ولكن الشيعة كانت تمدح جانباً وتذم جانباً ، وتميل دائماً إلى بيان موضوع الوراثة وحقّ عليّ في الخلافة ، كما قال الكميّ :

يقولون : لم يورث ولولا ترائه لقد شركت فيه بكيّل وأرحبُ

ومدح كثير عزّة الأئمة من قریش وصارحنا بمذهبه السياسي فقال :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَا الْحَقَّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ لَهُمْ خَفَاءُ

وهكذا بسط أسماء المرشحين للولاية والخلافة ، وطبعي أن نجد في الأحزاب الأخرى شعراء يمدحون مرشحهم كذلك ، منهم زبيرى الهوى كابن قيس الرقيات حين يمدح مصعب بن الزبير فيقول :

إِنَّمَا مَضَعَبُ شَهَابٍ مِنَ اللَّهِ - وَتَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ

فيدعو إلى ملكه وخلافته ، ويرشحه للمنصب السامي الرفيع ، لأنه قوة من الله ، ولأنه شهاب منير فيه جبروت وليس عنده كبرياء ، وهذا بيان حزبي موجز في حكم قليل ، ينصر مصعباً ، ويمهد له الحكم والرياسة .

ومن الأحزاب كذلك سفينانيون يذهبون إلى حكم معاوية وأسرته بعد أن قُتل عثمان ، وأصبح أهل بيته أولياء دمه ، وعلى رأسهم معاوية ، فهم يقومون بأعباء الحكم ، ينصرهم ماض في قریش عريق ، وهم من أسرة النبي فهم وارثوه ، لذلك قام الشعراء بمدحهم ودعمهم والدعوة لهم ، كأن يقول أعشى ربيعة في ذم الزبيريين ومدح الأمويين :

إِنِ الْخِلَافَةَ فَيَكُمُ لَا فِيهِمْ مَا زَلَمُ أَرْكَانَهَا وَثَمَالَهَا

ويقول النابغة الشيباني في عبد الملك حين هم بخلع أخيه وتولية العهد لابنه الوليد :

أَمَّا قُرَيْشٌ فَأَنْتَ وَارِثُهَا تَكْفُ مِنْ غَرَبِهِمْ إِذَا طَمَحُوا
لَا بَنَكَ أَوْلَى بِمَلِكٍ وَالِدُهُ وَنَجْمٌ مَنْ قَدْ عَصَاكَ مَطْرَحُ

ونلاحظ البساطة في عرض الأسباب والحجج والوثائق والأدلة لدعم الخلافة والوراثة والولاية ، فهي لا تعدو أن تكون تقريراً لا تعليلاً في غالب الشعر ، كما يقول أرباب السياسة ، ولكنهم شعراء لم يحدقوا هذا الفن ، فهم قريبو العهد به ، يظنون أن قولهم حجة ، وأن شعرهم بيان سياسي فيدلون به وهم على مثل الثقة بأن السامع معهم في التصديق والتحقيق . والشعراء الذين مدحوا سياسياً في

عهد بنى أمية كثر ، منهم عدى بن الرقاع وهو من دمشق ، وأبو صخر الهمللي وعبد الله بن الزبير الأسدي ، وغيرهم ، تجدد في شعرهم حلم معاوية في الحكم ، وحزم عبد الملك ، وقسوة هشام ، وعبث يزيد بن عبد الملك . يعرضون لطريقة حكمهم ، ويبسطون سلوك الخلفاء خلال ذلك كله ؛ فيقول الفرزدق في عمر ابن عبد العزيز :

لَمْ يُلْهِهِ عُمَرُ عَيْنَ يُفَجِّرْهَا وَلَا النَخِيلَ وَلَا رِكْضَ الْبَرَاذِينِ

ويصفه بأنه يختلف عن غيره من الخلفاء في جلدّه وتقواه ، وحرصه على أموال الرعية ، وبسطه العدل والقسطاس بين المسلمين . وهذه حجة قوية يدلى بها الفرزدق في بيان سيرة سياسية لخليفة أمويّ .

وقد دخل هؤلاء الشعراء كذلك فيما كان بين قيس وتغلب منذ القديم من عصبية وتنافس في توجيه السياسة . وكان الأخطل أشدهم براعة في إثارة النعرة وإيقاظ الفتنة وبعث الدفين من العواطف ، فلهارت بينه وبين جرير قصائد كثيرة حول هذا الموضوع ، فكان جرير لسان قيس ، ووقف الأخطل مع تغلب بنى قومه . وقام الفرزدق بنصيبه في هذه المعركة السياسية ، فعاشت الإقليمية — كما نقول اليوم — واستيقظت العصبية الجاهلية ، وعاد الناس القهقري يسمعون شعراً كان يسمعه أجدادهم من قبل ، وأصبح الشعر في خدمة الأمير والقائد والوالى على مختلف الأقاليم الإسلامية . ذلك لأنهم كانوا يمثلون الخليفة في حكمه ، وينطقون باسمه في سياسته . وقد رأينا مديحاً لهؤلاء في أبواب سابقة ، كالحجاج وابن الأشعث ويزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم ، حتى أن بعض الشعراء لزم والياً أو قائداً أو أميراً ، كما يلزم خليفة أو ملكاً ، فازداد بذلك المديح السياسى وتشعب ، وكثرت أغراضه وتنوعت أساليبه ، وقيل في هؤلاء من المديح الإدارى والسياسى ما لو قيل في الحكام المعاصرين لاثابوا عليه

الصحافة والأنصار ، فقله قال جرير في الحجاج :

من سدَّ مُطالع النفاق عليكم أم من يصول كصوله الحجاج
 أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيره الأزواج
 إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضى البصيرة واضح المنهاجر
 منع الرشأ وأراكم سبل الهدى واللصّ نسكّه عن الإدلاج

وهكذا صور الحجاج خصما للنفاق السياسى ، صائلا فى حكمه ، قله ألزم
 النساء لعهنده خطة الحفاظ على الأسرة والشرف فى البيت ، فكان واضحا فى
 منهاجه يمنع الرشوة ، ويحول دون السرقة واللصوصية . فن من الحكام لا يطمح
 اليوم إلى مثل هذه الرتبة وإلى مثل هذا المديح ؟ !

٢

وظل الشعراء العباسيون على هذا الغرار يمتدحون الحاكم لسياسته ، فكان مسلم
 ابن الوليد يثنى على القواد والأمراء لحنكتهم فى تسيير الأمور بحنكة ودهاء ،
 وعملهم فى بسط الأمن ، وجباية المال ، فقال فى منصور بن يزيد وآله :

كانوا الملوك بنى الملوك ورائة والملك فيهم لا يزال يدور
 أعطاهم ذلّ المقادة قيصر وجبى إليهم خرجه سابور

وأبو العتاهية مثله فى ذلك يرى فى ممدوحه جدارة بالحكم ، ويراه وحده
 أهلا للخلافة فيقول فى المهديّ :

فلم تك تصلح إلّا له ولم يك يصلح إلّا لها

ولورامها أحدٌ غيره لزلزلت الأرض زلزالها

والشعراء بعده كانوا يرون في الأمراء والخلفاء أحق الناس بالحكم والإمارة لما يبذلون من عدل وما ينفقون من شجاعة وذكاء في تسيير دفة الأعمال ، كما فعل أبو تمام والبحترى وغيرهما . والمتنبى امتدح حاكم حلب ثم رحل عنه إلى خصمه حاكم مصر فوجد لكل منهما دليلاً على جدارته في الحكم وموضعه من السلطان . وقد قال البحترى في إسحق بن إبراهيم :

الله أيدكم وأعلى ذكركم بالنصر يقرأ في السماء ويكتبُ
ولأنتم عدد الخلافة إن غدا أوراخ منها مجلسٌ أو موكبُ
والسابقون إلى أوائل دعوة يرضى لها ربّ السماء ويغضبُ

فرأى أن الله يؤيد هذه السلالة ويعلى ذكرها ، ويجعلها أهلاً للخلافة ، وبذلك ينصر الدعوة ويرضى لأصحابها ويغضب لأعدائها . وابن هاني الأندلسي وجد لبني هاشم حقاً في الحكم على مئات السنين :

بني هاشمٍ قد أنجز الله وعده وأطلعَ فيكم شمسهُ وهى دالكُ^(١)
ونادت بشارت الحسين كتائبُ تمطى سراعاً في قناها المعاركُ

فأعاد سيرة الحسين والثأر له ، ودعا لهذه الفئة السياسية أن تظل في الخلافة وأن يظل حكمها مبسوطاً على الناس . وكذلك ثابر الشعراء في عصبيتهم القبلية ينزعون إليها كل ما لمسوا السياسة أو أرسلوا شعرهم في الملوك والحكام سواء في الشام

(١) دالك : مصفر ، غائب زال عن كبد السماء .

أو في مصر والعراق . وكان هذا الشعر يثور وينتصر حين تكثر الدويلات ويسود الانتقام ويغلب التنافر والتنافس في الحكم ، طوراً بين حلب ودمشق وبغداد وفارس ، وطوراً بين مصر والشام أو بين الشيعة والسنة على اختلاف العصور .

* * *

فلما كان العصر الحديث وقامت الآستانة ، نشأ في المديح السياسي ميل إلى العروبة طوراً وإلى الإسلام أطواراً . فسار شوقي في ركاب الآستانة وامتدح الخلفاء العثمانيين لعلهم يمدون رواقهم على الإسلام ويرسلون رايهم في نصره والدعوة له ، وقد ضربنا الأمثال لهذا الشعر يمتدح به شوقي عبد الحميد حيناً والحدوي حيناً آخر ، وينتصر لمصطفى كمال ثم يمتدح رجالات مصر ممن كانوا يسعون في استقلالها وتفردتها بالحكم — كما رأينا في فصل سابق —

ولما كانت الحرب العامة الأولى ، وانفصلت الدول العربية عن الآستانة ، قام الشعراء بمدح الحكام والملوك ونصر سياستهم في بغداد حيناً ، وفي القاهرة حيناً آخر ، وفي دمشق أحياناً . وقيل في فيصل الأول وحكمه ما قيل من شعر يعيد إلى الذكرى عصبية العرب وخلافة الإسلام . وقيل في ملوك مصر أكثر من هذا ، حتى طمع آخرهم في خلافة المسلمين وجمعهم إلى ركابه ، ينظرون إلى عرشه في القاهرة ، وقال الشعراء يمدحونه لهذا ويشهدون له بنسب قرشي هبط إليه على ألسنة الوحي ! ولكننا لن نبسط القول فيه فقد ذهب مع التاريخ ، وغابت الأشباح . وقد قامت ثورات في العالم العربي وحكم رجال خلاها فتلقاهم مديح الشعراء لعظيم سياستهم وجميل حكمهم والإشادة بديمقراطيتهم ، وتوزيعهم العدالة بين الشعب ، وحرهم ضد الأدواء الثلاثة من جهل وفقر ومرض . وانقلب المديح السياسي إلى قواعد غربية ، فيها عكوف على حقوق الفرد ،

وبيان لعلاقة الحاكم بالمحكوم ، ودستورية الحكومة .

ولم يقف المدح السياسى خلال هذه الحقبة الماضية على الملوك والحكام والخلفاء ، وإنما انتصر للقادة السياسيين والزعماء الخالصين ؛ فامتدح سعد زغلول فى مصر وإبراهيم هنانو فى الشام ، وامتدح غيرهما من الزعماء والأنصار ، وما نزال نسمع فى المذيعات ونقرأ فى الصحف مديحاً للسلاسة فيه إشادة بمزاياهم لتعلقهم بأهداب الوطن والدفاع عن حماه والذود عن حياضه ضد كل مستعمر غاصب ، حتى قامت فى السنين الأخيرة مدائح لأحزاب معينة تقوم ضد المشروعات أو الأحلاف ، وأصبحنا نعيش كما يعيش الغرب على شعر سياسى فى المديح ، يهتف للانتخابات ، ويمهد للزعامات ، ويوطئ الأكتاف لتسلم الحكم . والأمثلة على هذا متوفرة تقوم بيننا صباح مساء ، نقرأها ونمرّ بها عابرين ، وهى أجدر أن تجمع وأن تبوّب لأنها تعيد ذكرى ماضينا ، وذكرى عصبياتنا القديمة بين بكر وتغلب ، ويمانية ومضرية وسفنيانية ، فهى تعيش بالألفاظ القديمة وتنظم بالأفكار الجديدة ، وتكتب بأسلوب العصر السياسى ، فنسير فى مواكب القرن العشرين ، وتقلد الغرب فى الدعاوة للأحزاب وأصحابها وزعمائها .

الفصل السابع

مديح الأوطان والبلدان

١ - الأوطان

أحب العربي الأرض التي عاش فيها سواء أكانت قاحلة أم منبتة ، جميلة أم غليظة ، لأنها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره ، فحنَّ إليها وهو بعيد واشتاقتها وهو غريب ، فأنشد فيها شعره حنيناً وحرقة ، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنها ذات خير وبركة ونعيم حقاً ، بل لأنها قطعة من عمره فحسب . وفي الشعر العربي كثير من هذا المديح بدأ في الجاهلية ولم ينته إلى اليوم ، وإنما تطورت صفحاته وتغيرت نظرة الشاعر فيه ، لكنها لم تخرج عن الحنين والحب والمدح والدفاع عن الأرض .

ولعلنا حين نستمع إلى أحمد بن يحيى ينشدنا أحب بلاد الله إليه ، نتساءل عن هذه البلاد ، نريد أن نعرف ما منعج وما دار سلمى ؟ :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج إلى دار سلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها حلّ الشباب تماثي وأول أرض مسّ جلدى تراها

فنعرف أن أحب أرض إليه تلك التي مسّ تراها جلده أول ما مسّ ، فهي وطنه وهي موضع حبه وتقديسه . وهو في ذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن ، لا تدخله فلسفة ولا منطق ، ولا تحدّه قوانين ،

ولا تفرضه حقوق أو واجبات . وابن الرومي يزيدنا تعريفاً بوطنه وبلده حين يقول :

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبِيهَ وَالصِّبَا وَلَبَسْتُ ثَوْبَ الْعِيشِ وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيَتُهُ وَعَلَيْهِ أَفْنَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ

وذلك تصوير جميل للوطن ، يتمثله الشاعر في الضمير ، فيرى الشباب وما إلى الشباب من عيش نصير وحياة شابة . ويقول كذلك في أسباب حب الوطن :

وَحَبَّ أَوْطَانِ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ مَا رَبُّ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَا لَكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عَهْدُ الصَّبِيِّ فِيهَا فَخُنُوا لَذَلِكَ

فالوطن مرتجع الشباب وموطن اللذائد الأولى ، ومحل الحب الأول يألفه الفتى أبد الدهر ، لا ينقلب عنه ولا يتحول ، وهم يزيدون على وصف الوطن ما فيه من شجر وعضاه ، ونبات ومياه ، جميلة كانت أم ضئيلة ، فالشاعر يقول :

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارِ

فالعرار هذا النبات الطيب يملأ أنف الشاعر وورثته و هو في نظره أضخم من النخيل على شطآن النيل ، فالديار محبوبة لأنها مألف الأحبة وموطن الأصدقاء وموضع الذكريات . ولا يكون الحب للربوع إعجاباً بالحجر أو الصخر والشجر والماء والزهرة والنور والظل والشعاع ، وإنما يكون لما ينعكس منها في النفس ، وينسكب في الروح ويجرى مجارى الدم ، فتنسجم كما يريد الخيال ، وتسمو كما يملأ الحب ، وهذا هو الوطن ، بقربه النعيم ، وفي بعده الجحيم ، كما يقول الشاعر :

إِذَا دَنَّتِ الْمَنَازِلُ زَادَ شَوْقِي وَلَا سِيَّامَا إِذَا دَنَّتِ الْخِيَامُ
فَلَمَحَ الْعَيْنُ دُونَ الْحَيِّ شَهْرُهُ وَرَجَعُ الطَّرْفِ دُونَ السَّيْرِ عَامُ

والذين يحبون الوطن ينصرفون عنه وفي الكبد تصدّع ، ويقبلون إليه وفي النفس شفاء .

وقد تبدّلت نظرة العربيّ إلى تعريف الوطن على مدى الأجيال ، ففي القرن الثالث ، قال أبو تمام يشرح حبه للوطن العربي فيقول :

بِالشَّامِ قَوْمِي وَبِعِدَادِ الْهَوَى وَأَنَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تَبْلُغَنِي أَقْصَى خُرَّاسَانِ

ونحن اليوم ننظر بعيني أبي تمام إلى هذا الوطن العربيّ الكبير من أقصى بغداد إلى الفسطاط ومن الرقمتين إلى الشام ، ونحسد الجاهلي في الدفاع عن خيامه ، يثير الحرب عواناً من أجلها ، ويشتد في النخوة والاستماتة في سبيلها ، فكم سألت دماء لحماية الحمى والذيادة عن الحياض ، وكم قامت حروب على الحدود للدفاع عن أرض الوطن . وكم اشتاق الشعراء ديارهم وبكوا لبعدهم عن أرض الوطن ، كما فعل أبو فراس في القدماء ، وشوقي في المحدثين . فقد تغرّب كلّ منهما مضطراً ، وأنشد كل منهما في حبّ الوطن والحنين إليه وامتداحه . وشوق قضى مدة النفي في الأندلس ، فأرسل يصف وطنه في قصيدة جميلة :

وَطَنِي لَوْ شَغَلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَذَا بِالْفَوَادِ فِي سَلْسَبِيلِ ظُمًا لِّلْسَوَادِ مِنْ (عَيْنِ شَمْسِ)
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جَفَوْنِي شَخْصَهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخْلُ حَسِّي

فاشتغل بوطنه أى شغل ، لا تلهيه عنه جنان النعيم ، وقد هفا إلى منزله
بعين شمس فلم يغب عن جفونه ساعة ، ولم يخل من التفكير فيه وتلمس الخيال
فى الوصول إليه . ولا يقل عنه محمود البارودى فى مدح مصر وهو بمنفاه بجيزة
(سيلان) حين يتنسم الهواء فىرى فيه نسيم مصر :

ونسمة كشيم الخلد قد حَمَلت رياء الأزهير من ميث وأجرع^(١)
يا هَلْ أرانى بذاك الحى مجتمعا بأهل ودّى من قوى وأشياى

فنسيمها كنسيم الجنة يحمل رياء الأزهير من أرض وطنه الطرية اللينة ،
ويتساءل هل يجتمع إلى أهله ويرى أشياعه وأنصاره ومحبيه من أهله وبني قومه .
والشعر الوطنى كثير فى أدبنا العربى يعيننا حصره وعرضه فى هذه الصفحات
القليلة ، فقد مرت بالوطن العربى هزات عنيفة على مرّ الأجيال ، خرجوا من
جنان النعيم ، فغادروا الأندلس فى القديم وذكروا فى كل مناسبة أو لكل
حادثة أرضهم الحبيبة ، والحدائق الغناء التى كانت تلف منازلهم والقصور الشام
التى كانت موضع أنظارهم ، والهواء العليل الذى كان يغذى صدورهم ، فبكوها
بكاء لا ينقطع ، وأرسلوا فيها من الشعر مالا يحدّ ، والناس يذكرون قصيدة
الرندى فى مدح الأندلس وراثتها ، ويعرفون ملازمته للذكرى الخالدة .

ونكبوا بهجمات الترك والتتار والمغول ، وهجروا ديارهم لهجمات هؤلاء
البرابرة ، وبكوا فى قصائد عامرة بعدهم وحبهم ، ومدحوا أوطانهم مديحاً تسيل
فيه المدامع وتمختلط فيه الزفرات بالأشواق وعاطر الشاء .

وهجمت عليهم جيوش الغرب فى القرن الثالث عشر للميلاد باسم الدين
واحتلت جزءاً من أراضيهم ، فهجروا وسافروا وتغربّوا ، ومدحوا كذلك ما خلفوا .

(١) الميث : جمع ميثاء وهى الأرض اللينة ، والأجرع : الأرض السهلة .

ولا تسل عن قصائد هم حين عادت هذه الجيوش ثانية ، باسم الحضارة والمدنية والانتداب ، فهاجر الأحرار وأرسلوا مديحهم في الوطن وحبّ الديار بما يملأ الصفحات ثناء عاطراً على الغوطتين والنير بين ومشارف بردى وقاسيون ، وشطآن دجلة والنيل .

وضاقت نفوس كثير منهم بالحكم العثماني فهاجروا إلى ديار العالم الجديد ، ولكن قلبهم ظل عالقاً بصخور لبنان وينابيع الشام وطرق يبرود وحمص فأرسل شعراء المهجر في مديح وطنهم الأول مديحاً فيه غصّة وحنين وإكبار واحترام . وأما الهزة الأخيرة لأهل فلسطين ، فقد قال فيها الشعراء من سكانها وغير سكانها ما يتضاؤل دونه الشعر الماضي ، فأنشدوا في مديحها كذلك وهم يمزجون الحنين بالألم وهول الفاجعة . ونحسب أن هذا الشعر الوطني الذي يتغنى به أهل المشرق والمغرب جديد في نظمه وخياله وتعبيره ، قد أخذ عن الشعر الغربي شعور أهل الغرب بحب الوطن ، حتى لكأنه يقف له أو يقلده أو يترجمه .

* * *

٢ - البلدان

تعلّق الشعراء منذ القديم بحواضر معينة فامتدحوها بشعرهم ، وكان من ذلك ديوان ضخّم ، تسيل فيه عواطف الحبّ والإعجاب والحنين ، ويطفح بوصف الأنهار والرّبي والجوامع والساحات والأبنية والأماكن فيها ، فقالوا إلى مكة والمدينة ، وقالوا فيهما شعراً كثيراً هو أقرب الأشياء إلى الشعر الديني لما يظهر فيه من حب للكعبة وتقديس لروضة الرسول ، وذكرى ولادة المجد وانبعاث النور .

وقالوا في بغداد كثيراً ، لأنها ظلت موطن الملك ومحط الأنظار ومصنع

التاريخ الإسلامى خلال قرون عدة ، فقال شاعرهم ابن زريق :

هيهات بغداد الدنيا بأجمعها عندى وسكان بغداد هم الناس

وقال فيها شاعر مفلس يصفها فى غرابة :

سقى الله بغداد من بلدة حوت كل ما لذ للأنفس
ولكنها منية الموسرين كما أنها حسرة المفلس !

وقال فيها شاعر آخر يفضلها على الشام من قصيدة :

تنامُ بها عين الغريب ولا ترى غريباً بأرض الشام يطعم فى الغمض

ولن نستنفد هنا أجمل ما قيل فيها ، فكله جميل تجده فى تاريخها وفى الكتب التى تشيد بمحاسنها . وتستطيع أن تقع على شعر كثير فى كل بلدة سكنها شعراؤها ، وتجد بعضه فى معجم البلدان لياقوت ، أو فى كتب فضائل البلدان ، فقد ألف فيها القدماء ، وجمعوا محاسن الأقوال وأطايب الشعر ، من شعر ومن نثر ، وأكثر هذه الكتب مطبوع قريب المتناول ، فى فضائل حلب ودمشق وبغداد ومصر ومكة والمدينة وغيرها من المدن مما نذكره وما لا نذكره . ولو جمع الشعر الذى جاء فى مدحها لأربنى على ديوان كبير فى هذا الباب .

فقد قال الشعراء فى مدح همدان على شدة بردها وزمهريرها ، وقالوا فى هراة لحصبتها وتفاحها ونرجسها ، وقالوا فى بخارى والشاش ، كما قال أبو فراس فى الموصل وحلب ، وقال كشاجم فى مدح مصر :

كانها الجنة التى جمعت ما تشتهى الأعين والأنفس

وقد اشتهر الصنوبرى بمدح البلدان ، فأشاد بحلب ووصفها فى قصيدة طويلة ، رسم فيها جامعها وسورها وساحاتها وميادينها وحاراتها ، مما عرضنا لبعضه فى كتاب الوصف ، لدقة ريشته وخصب قريحته ، فهو يقول فيها :

أنا أحمى حلباً دا رآ وأحمى مَنْ حَمَاهَا
أى حسن ما حَوْتَه حلبٌ أو ما حواها
فاخرى يا حلب المد ن يزد جاهك جاها
فلعمري إن تك المد ن رخاخاً كنتِ شاها

يرى الحسن فيها فيفاخر بها مدن العالم ، وهى فى نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية رخاخ فيه . ويمتدح دمشق كذلك فىرى الدنيا فيها ، تفيض بها جداول الماء خلال حدائق موشاة ، تكللها بالفواكه فى أبهى المناظر :

صَفَتْ دُنْيَا دِمَشْقَ لِسَاكِنِهَا فَلَسْتَ تَرَى بغير دِمَشْقَ دُنْيَا

ولم يقف الشعراء القدماء عند وصف عام للمدن وإنما تغلغلوا فى صميمها ، فرسموا أنهارها وجبالها وأوديتها وأبنيتها وقصورها ، وبرع الأندلسيون فى ذلك براعة لا يسبقهم فيها شاعر مداح . فلكل نهر قصة ، ولكل بلد فضيلة ومكانة ، تجد بعضه فى كتاب « الروض المعطار » عن جغرافية الأندلس ، فتسمع لابن عبد ربه وابن خفاجة ، وابن درّاج ينشدون أروع الشعر فى جمال البلدان والثناء على هوائها وإقليمها ومناظرها .

* * *

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك ، فأثنوا على ما رأوا فى الوطن وغير الوطن ، فقال شوقى فى مدح باريس ، والنيل ، وبردى ، ودمشق ، وزحلة ، ولبنان ، والآستانة ، وأسبانيا .

ومن قوله في دمشق :

قَالَ الرَّفَاقُ ، وَقَدْ هَبَّتْ سَحَابُهَا الْأَرْضُ دَارُهَا الْفَيْحَاءُ بُسْتَانُ
جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى كَمَا تَلْقَاكَ دُونِ الْخُلْدِ رِضْوَانُ

فوصف مدخل دمشق والحمائل من يمين وشمال تحفّ بالوافد وتلقاه
فكأن الدنيا دار واسعة وبستانها (الفيحاء) ، وبردى يشقّ الطريق مسرعاً
ليرحب بالزائر الكريم ، كأنه رضوان في جنان الخلد ؛ ومن قوله في بيروت :

لِبْنَانِ وَالْخُلْدِ اخْتِرَاعُ اللَّهِ لَمْ يُوسَمِ بِأَزِينِ مِنْهُمَا مَلِكُوتُهُ
هُوَ ذُرْوَةٌ فِي الْحَسَنِ غَيْرُ مَرُومَةٍ وَذِرَا الْبِرَاعَةِ وَالْحَجَى يَبْرُوتُهُ

فهو يجعل لبنان مقروناً إلى الجنة من أجل ما أبدع الله ، لأنه ذروة في
الحسن ، وعاصمته رأس في البراعة . ومدح مطران مسقط رأسه بعلبك من لبنان
وأُنشد في الثناء عليها قصيدة عامرة ، وقد شاقه الحنين إليها ، ومدح عادل
الغضبان بلده حلب ، وقد طال مقامه في مصر واشتد حنينه إليها فلما استقبلته
عانقها بهذه الأبيات :

حَتَّى بَدَتْ حَلَبٌ حَسَنَاءُ لَا بَسَةَ ثَوْبًا أَغْرَ بُوْشَى اللَّهِ مُزْدَانَا
تَمَثَّلَتْ لِي سُلْطَانًا وَقَلْعَتُهَا تَاجًا يَتِيهِ بِهِ عِزًّا وَسُلْطَانَا
تَحْكِي حَدَائِقُهَا حَفَّتْ مَنَازِلَهَا بَحْرًا سَحِيقَ الْمَدَى بِالسُّفْنِ مَلَانَا

ثم يصف المآذن في قلب هذا البحر السحيق ، ويرسم هذا البلد القديم ،
وقلعتة في قلبه كتاج يتيه على مفرق الحاضرة ، شاهداً على العز والسلطان ،
ويرى أنه سافر من وطن إلى وطن « يا بارك الله في القطرين أوطانا » .

ومدح على محمود طه مدناً في الغرب ، وأنشد محمد عبد الغنى حسن
في مديح كثير من المدن الأوروبية عرفها وأقام فيها ، فعاج بالذكرى إليها يماً
الحنين نفسه ، فصاغ فيها ذوب عاطفته ورقيق شعره .

ومدح كثير من شعرائنا مدناً في البلاد العربية كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ،
كما مدح شعراء المهجر منبت عزهم ومولد عبقريتهم ، وقد جرى قلمنا في عرض
قصائدهم لكتاب الوصف ، فلن نعيد القول هنا وإنما نشير إشارة عابرة إلى أن
المديح تناول عند العرب الأحياء وغير الأحياء ، حين استطاعوا أن يتخيلوا هؤلاء
قريباً منهم يناجونهم كالأحياء ، أو يتمثلوا الجماد يتكلم ويسمع . وقد
تعلق شعرهم بالرؤساء والأمراء والوزراء والعلماء ، سعيّاً وراء الشهرة حيناً ،
أو طوافاً على أبواب الوجهاء في كسب المال ، أو تعبيراً عن عاطفة دينية ، أو
إظهاراً لشعور التشيع ، أو مشاركة في السياسة ، أو ثناء على الأوطان ، وإشادة
بعامر البلدان .

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00507282

مجموعة فنون الأدب العربي

لقد قصد من هذه المجموعة أن تملأ للقرارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب العربي على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكون هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

برنامج المجموعة

• في الفن الغنائي :

الغزل ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والخماسة ، الهجاء ، الزهد والتصوف ، الموشحات والأزجال .

• في الفن القصصي :

المقامة ، التراجم والسير ، الترجمة الشخصية ، الرحلات ، الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .

• في الفن التمثيلي :

المسرح ، الفجاجة والمأساة ، الملهاة .

• في الفن التعليمي :

النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والنصائح والأمثال ، منظوم

CA
808.1
D12bA